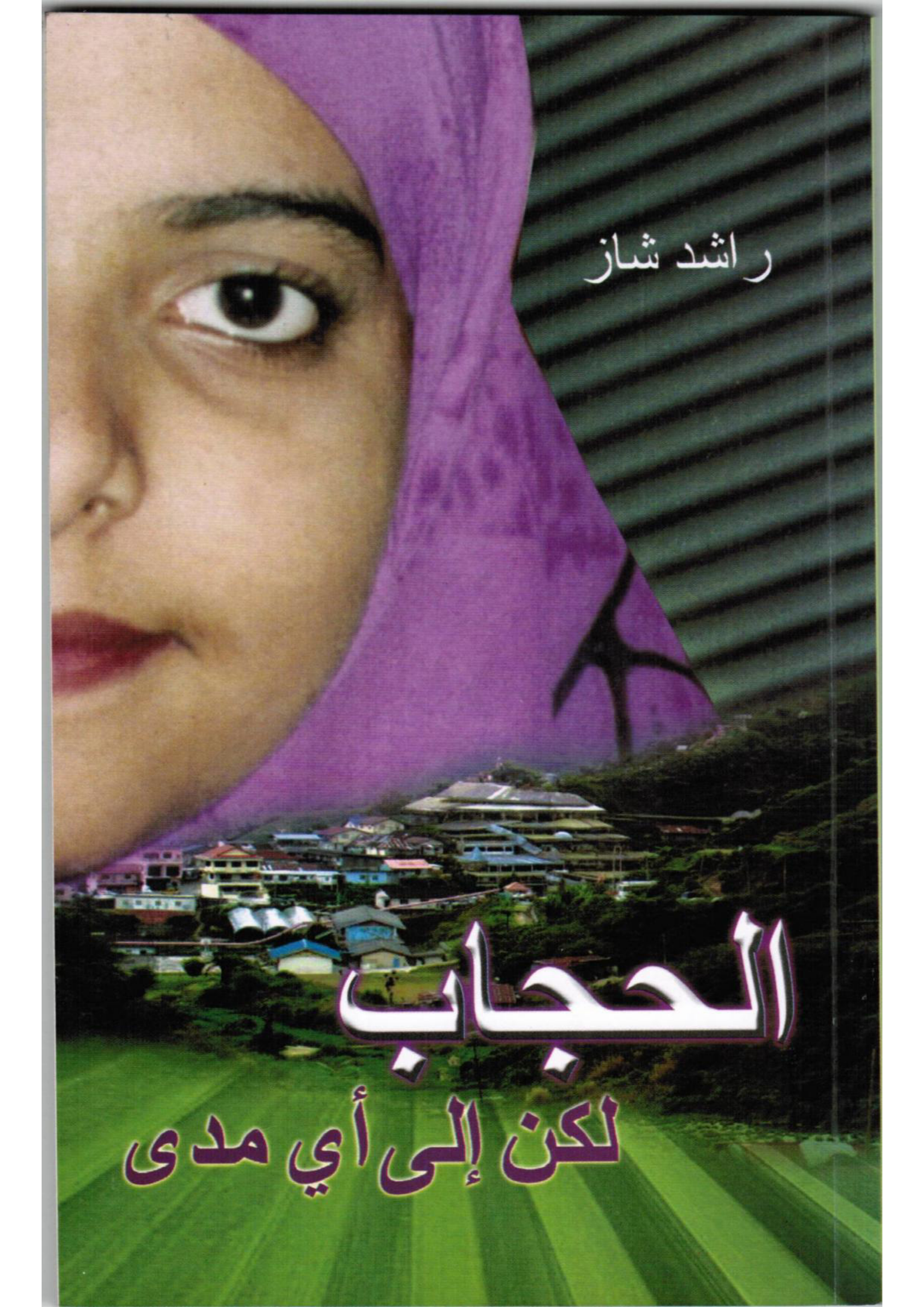

راشد شاز
الحجاب
لكن إلى أي مدى



إن أحكام الحجاب لم تجعل مسلمات العهد النبوي يشعرن أنها أحكام قد شرعت لتنحيتهن من الحياة الاجتماعية. و لكن في العهود اللاحقة، لما بدأت آثار الانحلال الأخلاقي تظهر شيئًا فشيئًا في المجتمع المسلم فرأى بعض الفقهاء أن الحل لعلاج هذا الانحلال هو فرض القيود على حركة المرأة الاجتماعية، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة في نظرهم لإنقاذ المجتمع من الفتنة، و لكن ما كان ينبغي لهم هو إصلاح أخلاق الرجال وأحوالهم بدلاً من تكبيل المرأة باسم الحجاب وتحديد دورها بين الجدران الأربعة، ولو كان كذلك لما ارتكبنا خطأ تعطيل نصف قوة المجتمع باسم الجلباب. إن هذا الكتاب محاولة لانتشال الأمة من وهدة الإفراط والتفريط في هذا الموضوع الحساس والخطير.

كاتب ومفكر هندي يتميز بسعة اطلاعه على العلوم الشرقية والغربية من مصادرها الأصيلة، مع قدرته على التفاعل مع الثقافات المختلفة، فعلى مدار العديد من السنوات الماضية، كان عاكفًا دون كللٍ على العمل على إعادة بناء الفكر الإسلامي، وإحياء مسار خالدٍ من الفكر الإسلامي المتجدد. إن د. شاز كتب العشرات من المؤلفات والدراسات حول موضوعات مختلفة تتعلق بقضايا الأمة الإسلامية باللغات العربية والأردية والإنجليزية، والتي يبرز من خلالها الحاجة الماسة إلى الإصلاح الإسلامي.



دار الحكمة
لندن



ISBN 1-904923-26-7
9 791904 923267

الحجاب

لكن إلى أي مدى

راشد شاز



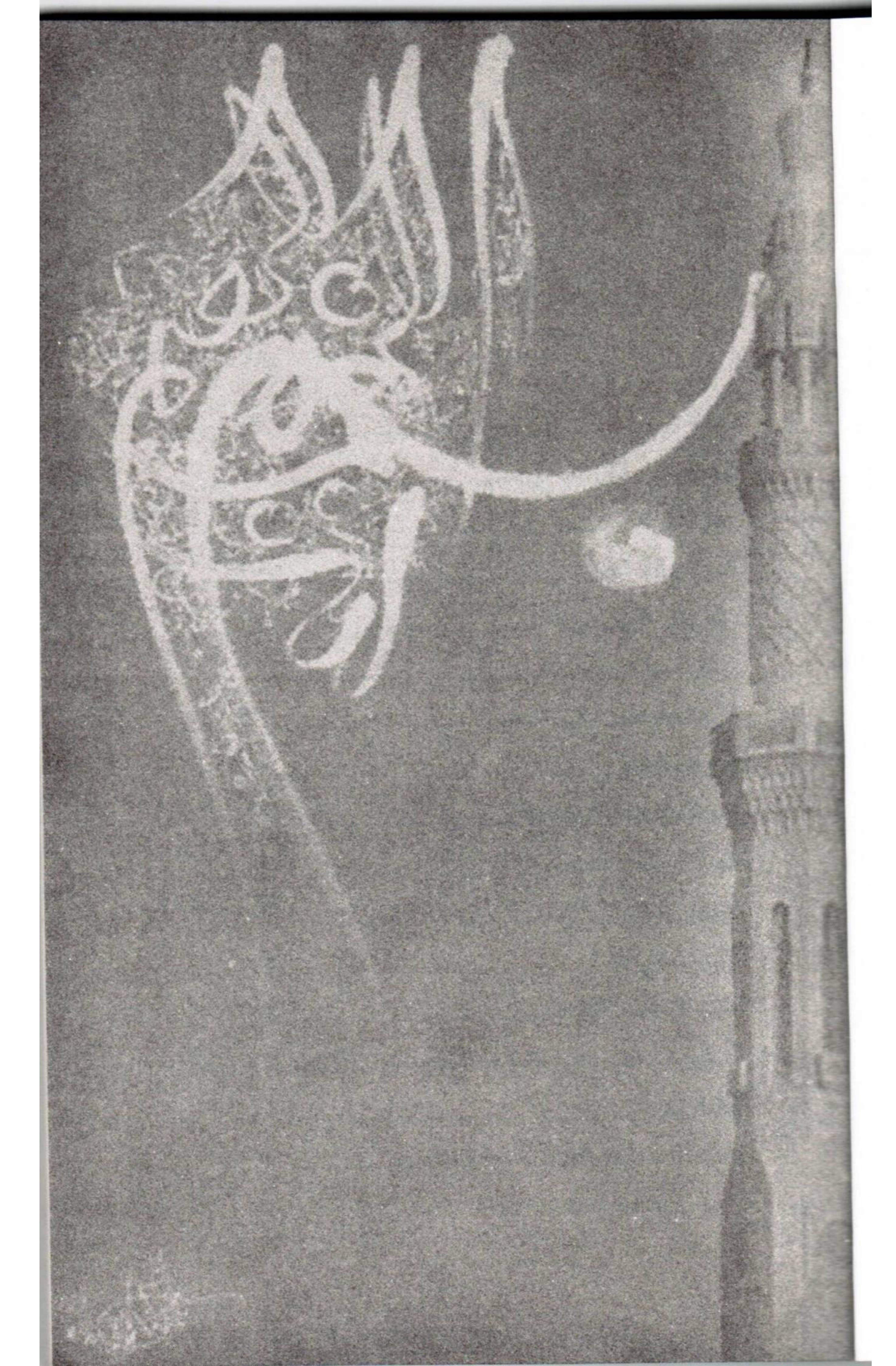
دار الحكمة
لندن

الطبعة العربية الأولي
١٤٢٧ هـ/٢٠٠٦م

ترجمة عن الأردية
تحت إشراف
الأستاذ محمد فاضل

الترقيم الدولي: ٧-٢٦-٣٩٢٣-٩٠٤٩٢٣-١

دار الحكمة
للطباعة والنشر والتوزيع
88 Chalton Street
London NWI IHJ
Tel: +44-20-7383 0116
Email: hazim@hikma.co.uk
www.hikma.co.uk



المحتويات

مقدمة

ظلت المرأة تمثل تحديًا للرجل على مر الزمان, ولم تكن الحضارات القديمة قادرة على قبول هذا التحدي، ومن ثم رأت أنه من الأسلم تنحية المرأة عن الساحة الاجتماعية, فمن ناحيةٍ أصبح مجرد مرور طيفها على الخاطر مبعثًا للنفور عند أهل التقوى، وهو نفس الموقف الذي تبناه نساك البوذية تجاه المرأة، ومن ناحية أخرى نظرت الرهبانية المسيحية إلى المرأة باعتبار أن نبذها وهجرها يعد سبيلاً إلى التقوى. أما الإسلام فقد استقبل المؤمنات مثل المؤمنين بصدرٍ رحب، ولم يفرض أي قيد على دور المرأة الاجتماعي في الحياة اليومية، وكما جعل التقوى ضابطًا لحياة الرجل، أمر المرأة كذلك أن تتبنى التقوى منهاجًا لها وكما كلف الرجال بغض البصر، كلف المرأة بالالتزام بالأخلاق العالية والسلوك القويم وحذرها من الإفراط في إبداء الحسن والجمال غير الضروريين، ولهذا الغرض جاءت أحكام الجلباب تستثني ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إلا أن أحكام الحجاب هذه لم تجعل مسلمات العهد النبوي يشعرن أنها أحكام قد شرعت لتنحيتهن عن الحياة الاجتماعية. وفي العهود اللاحقة، لما بدأت آثار الانحلال الأخلاقي تظهر شيئًا فشيئًا في المجتمع المسلم رأى بعض الفقهاء أن الحل لعلاج هذا الانحلال هو فرض القيود على حركة المرأة الاجتماعية، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة في نظرهم لإنقاذ المجتمع من الفتنة، مع أن ما كان يجب عليهم القيام به هو إصلاح أخلاق الرجال وأحوالهم بدلاً من تكبيل المرأة باسم الحجاب وتحديد دورها بين أربعة جدران،

وتعطيل نصف قوة المجتمع باسم الجلباب. وإذا كانت أبواب المساجد قد فتحت للنساء مثل الرجال في عهد رسول الله ﷺ، فلا يجوز لأحدٍ من الفقهاء المتأخرين أن يسلبهن هذا الحق الاجتماعي الذي منحه الإسلام لهن؛ فالله ورسوله أعلم إذا كان نشاط النساء في المساجد سيكون مبعثًا للفتنة، أم سينشأ عنها مجتمع طاهر نظيف يستفيد فيه الرجل والمرأة من بركات المسجد على السواء.

إن هذا الكتاب محاولةٌ لانتشال الأمة من وهدة الإفراط والتفريط في هذا الموضوع الحساس والخطير, وقد بذلت فيه جهدًا بالغًا لمعالجة هذا الموضوع على ضوء دائرة الفكر القرآني الخالص, موضحًا مقصد القرآن وهدفه من الحجاب، مستشهدًا بما كان عليه المجتمع المدني في العهد النبوي بلا زيادة أو نقصان. لقد أدت المرأة دورًا أساسيًا في تاريخ الإسلام، فأنى للأجيال التالية أن تنكر هذا الدور الأساسي؟ إن أول من آمن بالنبي ﷺ كانت امرأة، هي خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) وهي التي قال النبي ﷺ فيها: "لقد آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بمالها حين حرمني الناس"، وأول من استشهد في سبيل الله كانت امرأة، هي السيدة سمية (رضي الله عنها). ويمكن أن نرى دور النساء كذلك في بيعة العقبة الأولى والثانية، حيث تعهدت النساء فيهما بنصرة الإسلام ونجدته. إن انسحاب المرأة من الحياة الاجتماعية ليس ممكنًا فلو نحَّينا السيدة عائشة وحدها عن هذا المجال، لفقد الفكر الإسلامي أحد أعمدته الأساسية، ونحن نرى كيف كان كبار الصحابة يضطرون إلى استشارتها، وكيف كانوا ينهلون من فيضها للاستفادة به في الأمور المختلفة. إن شخصية السيدة عائشة تحمل رمزًا أساسيًا يؤكد للمجتمع التقليدي أن كل الاعتبارات قد سقطت بعد طلوع شمس الإسلام، وأن أحدًا رجلاً كان أو امرأة لا يمكن أن يهمل فكره. إن السيدة عائشة لم تعط المرأة فقط مكانة المفكرة والمبلغة والمعلمة في المجتمع المدني في القرن الأول، بل قدمت أيضًا القيادة العملية في المسائل الاجتماعية والسياسية الحساسة. ومع أنه كان للنبي ﷺ أزواج مطهرات أخر إلا أن المكانة التي كانت تحظى بها السيدة عائشة كان لرجاحة فهمها وعقلها. ومع شيوع القول بأن النساء ناقصات عقل ودين، هل يمكن لأعظم رجلٍ كائنًا من كان أن يتحدى فقه السيدة عائشة في الدين. لقد أثبتت النساء رجاحةً في العقل فاقت

الرجال في كثيرٍ من المواطن، حتى أن الحافظ الذهبي صاحب ميزان الاعتدال كتب أنه وجد في طبقات الرجال كثيرًا من الكذابين والمدلسين الذين وضعوا آلاف الأحاديث إلا أن ما أدهشه هو أنه لم يجد راويةً واحدةً من النساء اتهمها العلماء بوضع الأحاديث إذاً فلم لا يوثق بصحة فكرهن ورجاحة عقلهن في المجتمع المسلم؟

إن القران الكريم يؤكد لنا أن الانتماء لجنس الرجال أو النساء لا يكون علة لقبول الحق؛ فملكة سبأ لما وصلتها دعوة الحق، وثبت لها أن سليمان نبي صادق، أعلنت دون تردد:

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]

ولما وصلت الدعوة نفسها إلى رجلٍ مثل فرعون على لسان موسى عليه السلام رفضها وكفر بها. لقد كانت ملكة سبأ رائدة قومها إلى التوحيد، بينما كان فرعون رائدًا لقومه في إلحاق الخزي بهم في الدنيا والآخرة، مما يؤكد على أن الجنس الذي ينتمي إليه الإنسان لا يحول دون الالتزام بالتقوى. لقد كان لثناء القرآن على الفطرة السليمة لملكة سبأ آثارًا بعيدة المدى في التاريخ الإسلامي، فلم ينظر إلى قيادة المرأة في المجتمع الإسلامي باعتبارها حدثًا فريدًا، وظهرت القيادة السياسية للنساء في موقعة الجمل متمثلةً في مشاركة السيدة عائشة (رضي الله عنها)، واستمر هذا التواصل دون توقف. إن من يعتبرون أن بينظير بوتو أول رئيسة وزراء في التاريخ كان نتاجًا للتعليم والثقافة الغربية لا يعلمون في الحقيقة شيئا عن تاريخنا، وعليهم أن يعلموا أنه حتى في عصور التدهور الإسلامي، لم يكن عدد النساء الرائدات قليلاً، فمن النساء اللاتي قمن بقيادة الأمة في الأوقات الحاسمة الملكة عصمة الدين التي تعرف في التاريخ باسم شجرة الدر. لقد قامت شجرة الدر بإخفاء وفاة زوجها الملك الصالح أثناء الحملة الصليبية السابعة تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وقامت بإدارة المعركة بنفسها حتى انتصر المسلمون وتم أسر لويس التاسع تحت قيادة امرأة مسلمة، ثم تولت شجرة الدر العرش بعد هذه المعركة ودعا لها الخطباء من على منابر المساجد، كما أصبحت الأحكام تصدر باسمها، ونقش

---

[1] النمل: 44

اسمها على الدراهم والدنانير. وفي القرن الثالث عشر الهجري، يمكننا أن نرى كثيرًا من النساء القائدات في الدول الإسلامية ففي دلهي برز اسم رضية سلطانة، وفى آسيا الوسطى ظهرت أسماء مثل تركان خاتون، وصفوة الدين ملك خاتون، وساتى بك خان وتندو. وفى هذا العصر أيضًا، برز مشهد الحكم النسائي في إندونيسيا باسم تاج عالم ونور عالم، ووسط هذا المشهد الاجتماعي، يعد ظهور امرأة كملكة بوفال حدثًا عاديًا.

لقد كان هذا كله نتيجةً لثناء القرآن على ملكة سبأ، وإنه لمن المدهش حقًا أن يريد أتباع هذا الكتاب المبين سلب الدور النشط للمرأة تحت تأثير الثقافة الأجنبية ومما يثير العجب أنهم يفعلون كل هذا باسم الإسلام. وهذا الكتاب محاولة للخروج من هذا اللبس.

راشد شاز

الحجاب... لكن إلى أي مدى

هناك تصور عام أن المرأة المسلمة ليس لها أي دور في مسيرة الإسلام الإصلاحية وأن كل ما تستطيع فعله هو أن تشجع زوجها المجاهد، وأن تصبر على الضراء، ولا تشكو من المصائب التي تنزل بها نتيجةً لجهود التغيير والإصلاح، كما ينبغي عليها دائمًا كزوجةٍ أو بنتٍ أو أمٍ أن يكون قلبها متعلقًا بالحركة الإصلاحية أما المشاركة فيها كشخصية مستقلة تتنافس مع الرجال في هذا الميدان من أجل التغيير والإصلاح، فهو الشيء الذي لم يخطر ببال المسلمات إلا ما رحم ربي. إن كل ما نشأت عليه المرأة وورثته من المجتمع المتداعي هو أنه يجب عليها أن تخضع لسيطرة الزوج الكاملة, فهي كائن لا يحتاج إلى تمييز الصالح من الطالح لأن هذا من شأن الزوج أيضًا، ويكفي لها أن تركع دائمًا أمام رأي زوجها، وأن تعيش بقية حياتها تابعةً له لا تتمتع بأي قدر من الاستقلالية. وفيما يتعلق ببذل الجهد والتضحية لغلبة الإسلام وتمكينه، فالمرأة المسلمة لم يتم إعدادها من قبل المجتمع التقليدي لهذا الهدف، فقد قدر عليها هذا المجتمع أن تظل حبيسة المنزل بعيدًا عن مراقبة المتغيرات والمستجدات العالمية.

إن سبب تداعينا الحالي هو ما أعطيناه لبعض العادات والتقاليد السائدة من أهميةٍ لدرجة أن روح الإسلام الأساسية قد عُمِّيت فيها وغُيِّبت عنها. إن المفاهيم السائدة اليوم في معظم المجتمعات الإسلامية بشأن المرأة والدور المحدد لها ترتبط بالعادات والتقاليد السائدة أكثر من ارتباطها بالإسلام، وذلك هو ما أوصلنا رويدًا رويدًا إلى مرحلة تقديس هذه العادات والتقاليد. وحقيقةً إن المرأة في العهد النبوي كانت مختلفة تمامًا عن المرأة المتدينة التي اتخذت من التقاليد السائدة في مجتمعنا أساسًا لتدينها. إن الذين يحبون أن يروا تمكين الإسلام في العالم مرة أخرى، يجب

عليهم إذا أرادوا إحداث تأثير واضح في الحركة الإسلامية الإصلاحية أن يتكئوا على قوة المجتمع بأكمله، وأن لا يتحرجوا في منح المرأة المسلمة دورها الذي منحه لها الإسلام والذي يشهد عليه تاريخ القرون الأولى.

لقد خالطت العادات والثقافات المحلية تعاليم الإسلام حتى أضحى من العسير على عامة المسلمين التمييز بينهما، وحيث غُلِّقت الأبواب التي فتحها الإسلام تحت ذريعة درء الفتن، وأصيبت الأمة أجمعها بعلة الأحوطيات، وقاد علماؤها البارزون حركة حماية الشريعة بالأخذ بالأحوط بدلا من تنفيذها كما جاءت. وفي مثل هذا المجتمع يصعب إن لم يكن من المحال العمل بالإسلام في صورته الأصلية، وجعل المرأة عضوًا في المسيرة الإصلاحية من جديد. إن الذين ألفوا حياة العبودية السياسية والذين يفكرون فقط في مصطلحات الحماية، يُتوقع منهم ألا يبذلوا أنفسهم فقط من أجل السيادة العالمية للإسلام، بل وأن يشركوا نساءهم أيضًا في تحقيق هذا الهدف. ولا ريب أن هذا الهدف يحتاج في تحقيقه إلى ثورة فكرية عظيمة، وإلى النهضة بالمجتمع المسلم مرة أخرى على أساس الكتاب والسنة، وإلى التحرز تمامًا من تلك المعتقدات والتصورات الباطلة التي سادت أثناء فترة الاستعمار الطويلة، كما يحتاج أن تُعطى المرأة المسلمة كل ما أعطاها الله ورسوله، وعلى المرأة المسلمة ألا تطلب شيئًا قد نهاها الله ورسوله عنه، متمثلة لقول ربها:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1]

إن الأخوات المسلمات يجب عليهن مواجهة كل أنواع المعوقات المحلية والصعوبات الثقافية التي تقف عقبة كئود أمام الامتثال للأوامر الإلهية وما يجب أن تضعها المؤمنة نصب عينها هو كيفية الاستفادة من هدي القرآن الكريم، وكيف امتثلث الصحابيات في العهد النبوي لأحكامه. إن القرآن هو مصدر الهداية الأساسي، ثم تأتي الأحاديث والوقائع التي جاءت مفسرة لتعاليم القرآن، أما آراء الفقهاء التي جاءت بعد ذلك لتعفي المرأة من أداء بعض واجباتها درءًا للفتن، أو تلك التي تفرض قيودًا على حركتها ونشاطها في المسجد، فهذا كان نتاج فهمهم

[1] الحشر: 7

واجتهادهم الشخصي، وربما كان يتناسب مع بيئتهم الخاصة ولكن لا يمكن أن ننظر إليه على أنه صالح لكل العصور. إن كل فقيه أو عالم مهما عظم شأنه يعيش في عصر معين، عليه أن يجتهد في إطار فهمه المحدود للمسائل التي تنشأ في عصره، لكن هذا الاجتهاد لا يمكن أن يكون صالحًا للمسائل المتغيرة التي تنشأ في العصور الأخرى، ويكفينا أن نعرض المسألة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما آراء الفقهاء والعلماء العظام في العصور المختلفة، فيمكن الاستفادة منها باعتبارها كنزًا هائلاً، لكن لا يجب النظر إليها باعتبارها أحكاما قاطعة، وإذا كان كتاب الله موجود بيننا، وهو صالح لكل زمان ومكان، فلا يتسنى لنا أن نلتمس الهداية والرشاد من غيره.

وفي هذا الإطار، يجب علينا أن نفهم أن الإسلام يعتبر إيمان المرأة مسألة شخصية مثل الرجل المسلم، فالمرأة المسلمة تؤمن بالله وبرسوله، وتتعهد ببذل كل ما لديها في سبيل الله، وتلك مسألة شخصية لا علاقة للزوج، أو للأخ أو للأب بها، فهي ستجزى فقط على ما قدمت يداها، ولن ينفعها عمل الرجل الصالح.

إن دور المرأة في الحركة الإسلامية ليس دورا ثانويًا، وإنما هو دور أساسي مثل الرجل، فالقرآن الكريم يعلن صراحةً أن الحركة الإسلامية لا يكتمل وجودها دون مشاركة حقيقية من النساء. إن الحركة الإسلامية الفعالة في نضالها ضد الكفر تتطلب مجتمعًا إسلاميًا ذات خلية واحدة أعضاؤها هما الرجل والمرأة يؤنس بعضهما بعضًا ويقوى كل واحد منهما بالآخر. قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [1].

إن القرآن الكريم يصف حال الرجال والنساء الذي يبذلون جهدهم من أجل دين الله وفي سبيل تحقيق هدف مقدسٍ أوجب استحقاقهم لرحمة الله، وذكر المؤمنين والمؤمنات في هذه الآية على هذا النحو يوضح أن الدور المطلوب من النساء تأديته من أجل تمكين الإسلام لا يقل أهمية عن دور الرجال. ولعلنا لا نجد معركة دارت رحاها في العهد الأول لم تشارك المرأة فيها حسب قدراتها مع الرجل وتعاونه وتناصره، سواء كانت هذه المشاركة بالدعم المالي أم بقرض الشعر الذي يحث على القتال أم بالمشاركة الفعلية في المعركة وتحمل التعب والمشقة البدنية. وتذكر كتب التاريخ عن مشاركة أزواج النبي الطاهرات في الحروب، أنهن كن يجهزن الطعام للعسكر وكن يسقين العطشى ويداوين الجرحى، أما المشاركة المباشرة في الحروب فقليلاً ما حظيت بعناية مؤرخينا، وسوف نحاول إلقاء الضوء عليها في الصفحات التالية إن شاء الله.

إن ما نريد إيضاحه هنا هو أن للمرأة دورًا أساسيًا في الحركة الإسلامية مثل الرجل، فكما لا يكفي إيمان الزوج لزوجته، وكما لا تكون عبادة الأخ وسيلة في نجاة أخته، كذلك فإن الثواب الذي تحصل عليه المرأة في حركة تمكين الإسلام إنما يتوقف على مشاركتها الشخصية وأداء واجباتها. قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ 2

[1] التوبة : 71 - 72
[2] آل عمران: 195

إن الهجرة، وترك الأوطان، وتحمل الإيذاء، والمشاق، والقتل، والقتال في سبيل الله ليس خاصًا بالرجال، وإنما للنساء نصيب مماثل أيضًا في هذه السعادة، فارتفاع الدرجات عند الله يتوقف على الجهاد في سبيله، وكلاً من الرجل والمرأة يستحق ثواب الله، وعليهما أن يجاهدا بعزم في سبيل الله للفوز بما بشرهم الله تعالى به. قال تعالى في موضع آخر مفسرًا لذلك:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [1]

فبعد أن صرح القرآن بأن المرأة تهاجر في سبيل الله وتتعرض للظلم والعدوان مثل الرجل وتقاتل من أجل نصرة الدين معه جنبًا إلى جنب، كيف يمكن إذًا لامرأة بعد ذلك أن تتوقع الفوز في الآخرة دون اختيار هذا الطريق، وكيف يمكن أن تُرغِّب الحركة الإسلامية في العصر الحديث المرأة في التخلي عن العزيمة التي تستحق بالثبات عليها وعد الله تعالى، وخاصة بعد أن جاءت عبارات القرآن الكريم صريحةً في أن مغفرة الله للناس لن تكون على أساس النوع أو النسل أو الجنس، وإنما سترتكز على ما قدمت يد العبد. قال تعالى:

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[2].

ألا ينبغي على المرأة المسلمة أن تستعد لذلك اليوم من الآن, ذلك اليوم الذي وصفه الله في القرآن قائلاً:

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [3]

إن من يتدبر ويتفكر في هذه الآيات، يجد أن القرآن الكريم يصر من ناحيةٍ على أن نجاة المرء تتوقف على عمله الشخصي, كما يبشر الذين يتحملون المشاق

[1] النحل 97
[2] مريم: 95
[3] عبس: 35 - 38

والإيذاء في سبيل الله بالفوز الأبدي في الآخرة ولا يجعل هذا قاصرًا على رجل أو امرأة. ومن ناحية أخرى، ستتملكنا الدهشة إذا أمعنا النظر إلى المجتمع المسلم قاطبة، الرجل والمرأة، العالم والجاهل، المتحرر والمحافظ، الكل يعتقد أن المرأة لا يمكن أن يكون لها دور أساسي في حركة تمكين الإسلام. إن التصور العام السائد أن المرأة ليس لها دور في خلع النظام الباطل الحالي، وأن دائرة عملها واختصاصها إنما تكون داخل أسوار البيت ولا علاقة لها بالعالم الخارجي. وقد أخذ هذا المفهوم شيئًا فشيئًا مكانة كبيرة في الاعتبار، لدرجة أن بحث هذه المسألة من وجهة نظر جديدة أصبح أمرًا غير ضروري، ولا يلتفت إليه إلا نادرًا. ومهما تغيرت الأحوال والظروف وأحيطت الأمة بالشدائد ومهما كان الأمل عظيمًا لرؤية غلبة الإسلام مرة أخرى، فإن التقاليد تطمس على قلوبنا وعقولنا لتمحو كل أملٍ لنا في إقامة المجتمع الإسلامي على الأسس الإسلامية الصحيحة مرة أخرى، قبل أن يفرض الواقع الملموس صورًا وأشكالاً أخرى. وكان من أثر ذلك أن أكب مجتمعنا على حماية كل رموز الانحطاط، وأضحى يقلقه بل وكاد يقتله الخوف من الرياح الثقافية المنبعثة من الغرب، والتي سرعان ما ستمزق المجتمع شر ممزق. إن التحفظ الذي أبداه العلماء التقليديين قد اتسم بالغلو والشدة لدرجة أنهم قد سلبوا المرأة بعض حقوقها التي منحها الإسلام إياها، ويمكن أن ترى عند تصفحك لبعض الكتب التقليدية أبوابًا تحت عنوان "حكم منع المرأة من دخول المسجد" مع أن النبي ﷺ قال: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله".

ونحن نرى أن التصدي للحملة الثقافية الغربية وتجنب غارات الإباحية لا يمكن أن يجدي معها أي حل وضعي، كما أنه ليس هناك قوة في المجتمع المسلم يمكنها أن تواجه تلك الحملة وقيمها المحدثة، وهذا هو السبب وراء تعرض المجتمع المستمر للتفكك والانهيار على الرغم من تحذيرات العلماء ودعوتهم إلى التمسك بالعادات والتقاليد. ورغم الحيل الكثيرة لحبس المرأة وفرض القيود عليها إلا أنها في الحقيقة لا تزال تبحث عن دورها في العالم الخارجي. أخبروني!! أي مجالٍ من مجالات الحياة اليوم لا توجد فيها نساء الأمة مع العلم بأن المرأة المسلمة الباحثة عن دور لها في المجتمع تنظر إلى الغرب أكثر من الإسلام عند بحثها عن النموذج

والقدوة، وربما تضعف علاقتها بالمجتمع المسلم إن لم تقطع صلتها به. ومهما جاهدتَ للحفاظ على القيم الثقافية والتقاليد، وحاولت تزيينها بالقول: قال الله وقال الرسول، وبذلت ما شئت من جهود لإنقاذ المجتمع المسلم من التداعي، فلن تجدِ جهودك نفعًا في مواجهة عواصف الثقافة الغربية.

أخبروني!! ماذا بقى سالمًا في دائرتكم الثقافية التي أحدثها الاستعمار السياسي والعبودية منذ خمسين عامًا؟ لقد أردتم حبس نسائكم في البيوت فخرجن، وحظرتم تعليم الفتيات فذهبن مع مرور الوقت إلى الجامعة، وفرضتم قيدًا على مشاركتهن في المؤسسات الاقتصادية والسياسية، فرأين أعدادًا لا بأس بها تطرق أبواب هذه المؤسسات، وأنت لم تلتفت إليهن. إنك لا تفضل أن تدرس ابنتك في كلية الطب في ظل وجود تعليم مختلط، لكنك كلما احتجت إلى طبيبة، تفضل الرجوع إلى الطبيبة المسلمة، كذلك حرمتم مهنة المحاماة ولكن كلما عُقدت جلسة لمناقشة قانون الأحوال الشخصية لحماية الشريعة، رأيتم مشاركة المحامين المسلمين المهرة أمرًا ضروريًا، كأنكم قد تصورتم أن الهدي "الإسلامي" ليس للعمل، وأن شريعة العمل غير شريعة النصح. ولو كانت الأمة سارت على دربكم, فمن أين نأتي بالمحامي المسلم لحماية الشريعة ومن أين نأتي بالطبيبة المسلمة "نصف المحجبة" لعلاج سيدات محجبات مسلمات؟

إذا كنتم مخلصين حقيقةً في التصدي لهذه العاصفة الثقافية، فلا تواجهوها بأسلحة التقاليد والعادات، وإذا كان لديكم قوة الإسلام الثورية العظيمة التي يمكنها أن تهزم كل المظاهر الثقافية والحضارية الأخرى، فلم الإصرار على الحرب الدفاعية إلى هذه الدرجة، ولو كان إسلامكم ينهزم أمام عاصفة الغرب الزائفة وسراب الشرق الخادع، وأمهاتكم وبناتكم يشعرن بالأمان في ظل النظام الغربي أكثر من الإسلام وبناتكم يلجأن إلى المحاكم الباطلة طلبًا للعدل بدلا من المحاكم الشرعية، فاعلموا أنكم لستم أتباع الإسلام الذي وجدت النساء في ظله حقوقًا ظن معها بعض الصحابة أن النساء قد خرجن عن سيطرتهن. لقد أصبحت الحرية الشخصية للمرأة وحماية حقوقها في ظل الإسلام نموذجًا يُحتذى به بحيث لم يقف انتماؤها الجنسي عقبةً أمام نجاحها في الدنيا والآخرة. إن الحاجة ماسة لأن يعرف

كل شخص دوره المنوط به في حركة تمكين الإسلام، وكما كلفه الله ورسوله به مع عدم اعتبار القيم الثقافية إسلامًا، وإلا فلن يمكننا أن نخدم الإسلام أو أن نتصدى للحملات الشرسة المعادية.

وسواءً أكانت الحركات الإسلامية الواعية في العصر الحاضر أو في المجتمع المسلم المتداعي، فإن أيًا منها لم يعترف بحقيقة دور المرأة المنوط بها، بل إن أولئك الذين أرادوا النظر إلى الإسلام من وجهة نظر جديدة قد حددوا دور المرأة عندهم في الدور التقليدي. كيف يمكن لأمة وُجد فيها عدد كبير من النساء ممن كن على علم عظيم وأثرن في الحياة العلمية، وعملن في مجال الدعوة، واستفاد منهن حكام زمانهن واستشرنهم في بعض الأمور الإستراتيجية الهامة، وشاركن في ساحة الحرب في الأعمال شبه العسكرية، وكان لهن وجود فاعل في الأنشطة السياسية والاجتماعية، وأوصى الرسول بهن خيرًا في خطبة الوداع، وكن يحضرن المجالس الطارئة التي تعقد في المسجد النبوي، والمجالس العلمية، وصلاة الجمع والعيدين، كيف يمكن لأمة كهذه أن يقع ما وقع بها من الغفلة والجهل، حتى أن أخواتنا المتدينات لم يخطر ببالهن – إلا ما رحم ربي - أن مسئولية إخراج الأمة من تدهورها الحالي وإقامة الخلافة الإسلامية المركزية مرة أخرى تقع على عاتقهن أيضًا. ومن أجل أن نضمن مشاركة المؤمنات في عملية غلبة الإسلام وتمكينه كمساعدٍ ومعاونٍ للمؤمنين، ومن أجل أن نقوم بحركةٍ إصلاحيةٍ عالمية، يجب علينا أن نمحو الأفكار المغلوطة السائدة عن المرأة في الدوائر الدينية التقليدية والتي وصلت بالتدريج إلى درجة العقيدة.

عمل المرأة

تسود الكثير من الأفكار الخاطئة التي تتعلق بمجال عمل المرأة, حيث يرى كثيرٌ من الناس أن إطار عمل المرأة ينحصر داخل جدران البيت، وما عدا ذلك فهو عالم الرجل، وأن المرأة تفقد أنوثتها فور اقتحامها إياه. وقبل أن ننظر في صحة هذا الافتراض ونرى ماذا يقول القرآن في هذا الشأن، يجب أن نوضح أولاً أن الله قد جعل طبيعة تكوين المرأة مختلفة عن تكوين الرجل، فقد اختصها بالحمل والولادة

وحررها من بعض المسئوليات الأخرى، فأعفاها من تجشم كلفة العيش، وخفف عليها ألوان العبادات في أيام مخصوصة، وجعل مشاركتها في فريضةٍ هامة كالجهاد أمرًا اختياريًا، حتى أن النبي ﷺ قال "جهاد المرأة الحج". وفي الحقيقة، اقتضى تحمل المرء عبء الحمل والولادة إعفاءها من مسؤوليات أخرى.

لقد اختصت المرأة بالحمل والولادة، فهذا ما يناط بها القيام به (Essential role) إلا أنه ليس غاية حياتها، فكما أن الزراعة حياة الفلاح، والتعليم حياة المعلم، والطب حياة الطبيب، فكذا يكمن دور المرأة الأساسي في الحمل الولادة، وكما أن للفلاح والمعلم والطبيب وجودٌ ملحوظٌ خارج دوائر أعمالهم، فكذا للمرأة وجودٌ فعال في المجتمع الإسلامي، ولا ينتهي دورها عند الحمل والولادة. إن المرأة تشارك الرجل مسئولية إيجاد مخرج للحركة الإسلامية عند تعرضها للخطر، فعلى سبيل المثال إذا قام أعداء الإسلام بالهجوم على حدود دار الإسلام، ولم تقو الحركة الإسلامية على ردهم وردعهم، وهانت قوة المسلمين ولانت، حينئذ لا يستطيع الزعماء الدينيون أو دعاة التكنولوجيا أو الأطباء أو غيرهم عدم المشاركة في الجهاد تحت حجة أنه ليس من واجباتهم الأساسية. وإذا كان هذا مثالاً على الأحوال الطارئة، فإن الإسلام في الأحوال العادية يطالب كل شخص بالمشاركة الفعالة في المجتمع إضافة إلى أداء واجباته. صحيحٌ أن البيت هو ساحة المرأة الأساسية، وقد اختصها الله بالحمل والولادة وشرَّفها بالأمومة، لكن ليس من حق أحد أن يدعي أن دور المرأة في المجتمع المسلم يتوقف عند الحمل والولادة فقط، ومن يدعي ذلك فهو يقدم شهادة على جهله بالإسلام، بل إنه بذلك يرفض ثقافة العصر النبوي العظيمة التي نشأت نتيجة جهود مشتركة بين المرأة والرجل.

تعالوا الآن ننظر في كتاب الله لنرى كيف يعين دائرة عمل المرأة. إن القائلين بتحديد دائرة عمل المرأة داخل أسوار البيت يستدلون على موقفهم هذا بالآية الكريمة:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[1]

وقبل أن نلقي الضوء على هذه الآية، تعالوا لندرسها من خلال السياق الذي وردت فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[2]

إن القارئ المتذوق للقرآن الكريم، أو من له أدنى معرفة باللغة العربية يمكنه أن يستخلص بسهولة أن الخطاب في هذه الآيات موجه إلى أزواج النبي ﷺ, حيث ينبههن القرآن على المسئولية العظيمة التي آلت إليهن لكونهن أزواج النبي ﷺ. لقد لقبهن القرآن في أول هذه السورة بأمهات المؤمنين، فكيف لا يُتوقع منهن أن يبادرن

[1] الأحزاب: 23
[2] الأحزاب: 28-34

بالأعمال الصالحة أكثر من عامة المؤمنات نتيجة هذا الشرف العظيم. إن القرآن يؤكد عليهن أنهن لسن كأحد من النساء، وأن معيار الحياة الصالحة لهن يختلف تمامًا عن معيار الحياة الصالحة لعامة المؤمنات، وأن العذاب يضاعف في حالة المعصية كما يضاعف الأجر في حال الطاعة والعمل الصالح، وهذا تكريم لا تحظى به امرأة أخرى غير أزواج النبي الطاهرات. لقد وضع القرآن قيودًا كثيرة على أزواج النبي الطاهرات مقارنة بعامة المؤمنات، وأوضح القرآن أن السبب في ذلك هو أن الله يريد أن يذهب الرجس عن أهل البيت ويطهرهم تطهيرًا. كل ذلك يشير إلى التكريم الخاص لأزواج النبي ﷺ في المجتمع الإسلامي، فهذه هي الأسرة الروحية الفريدة التي شرفها الله بالقيادة؛ لذا جاء التوجيه لهن أن يقرن في بيوتهن، فهي ليست بيوتًا عادية، إنما هي مكان عظيم مبارك يتلو فيه النبي ﷺ آيات ربه، كما وصاهن القرآن بوجوب الاستفادة من هذا التكريم العظيم بأن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة. وفي هذا يصدق قول من قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وإذا كان هناك أحد يريد أن ينزل عامة المؤمنات منازل أمهات المؤمنين، ويحرم عليهن الخروج من بيوتهن، فيجب عليه أن يضمن أولاً مضاعفة الأجر لهن بما وعد الله به أزواج النبي ﷺ. وإذا لم يكن الخطاب في هذه الآيات قاصرًا على أزواج النبي ﷺ، فلماذا انتقل الخطاب في الآيات التالية من الخاص إلى العام، قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

ويلاحظ هنا أن الآيات الخاصة بأزواج النبي ﷺ اتسمت بالصرامة والشدة إلى جانب ترغيبهن في فعل الخير. أما الأمر في الآية السابقة فيبين آداب الخروج من البيت وليس الجلوس فيه؛ وذلك لتمييز المجتمع الإسلامي من المجتمع الجاهلي مع

[1] الأحزاب: 59

التسليم بحركة المرأة داخل المجتمع. إن أمر الله للنساء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليس إعلانًا عن المرأة ولكن إخفاء لزينتها بالجلباب الذي جعله الله مظهرًا من مظاهر العفة والقدسية. ولو كان الفرق بين نساء النبي ونساء المؤمنين ليس مقصودًا، فلماذا يخاطب الله النبي في الآية الأولى قائلاً:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾

بينما يخاطبه في الآية الأخرى قائلاً:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وإذا أصر أحد بعد هذا الإيضاح الذي قدمته على أن حكم القرار في البيوت ليس خاصًا بأزواج النبي الطاهرات، وإنما يشمل عامة النساء كذلك، فيجب عليه أن يقيم دليلا قويًا على صدق دعواه.

المرأة وحد العورة

إن الذين ينادون بحبس المرأة في البيت يعتبرون جسدها عورة كله، ويوجبون عليها ستر جميع أعضائها بما في ذلك الوجه والكفين بل إنهم ينزعجون من مجرد سماع صوتها من وراء حجاب، فتتجهم وجوههم وتعبس جباههم، ومثل هؤلاء ليس لديهم دليل من الكتاب والسنة، ولكنهم يكتفون بقاعدة الأخذ بالأحوط سدًا لتلك للذرائع التي اختلقوها من عند أنفسهم، لأنهم دائمًا ما يتخوفون من حركة المرأة داخل المجتمع، فلا يتحرجون من سلبها دورها الفاعل أخذًا بالأحوط وسدًا للذرائع ودرءًا للشر المزعوم.

وإذا انتقلنا من عامة المؤمنات إلى أزواج النبي ﷺ، نجد أن القرآن الكريم قد أجاز لهن التحدث مع غير المحارم من وراء حجاب. لقد كانت أزواج النبي ﷺ مرجعًا هامًا للصحابة في أحكام الدين في عهد الرسول ﷺ, ثم تقلد منصب الدعوة والإرشاد بعد الرسول ﷺ ولزمن طويل امرأة ذات جمال غير عادي وذكاء شديد،

هي السيدة عائشة (رضي الله عنها) ومع ذلك لم يستطع أشد معارضيها إسكات صوتها أو إيقاف حركتها داخل المجتمع أو الحد من فاعليتها تحت ذريعة درء الفتن.

إن سيدنا عمر بن الخطاب عندما أراد أن يضع حدًا معينًا للمهور، عارضته امرأة جالسة في أحد أركان المسجد معارضة شديدة، وقرأت الآية الكريمة:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾[1]

ولم يعترض أحد على رفع المرأة صوتها مطالبةً بحقوقها وسط هذا الجمع من الرجال، بل على النقيض تمامًا، عدل عمر عن رأيه وقبل قول المرأة قائلاً "أصابت امرأة وأخطأ عمر". كذلك عندما حدث نزاع بين أبي بكر وفاطمة بشأن فدك، دارت مناقشات ساخنة بينهما، وألقت فاطمة (رضي الله عنها) خطبة لإثبات حقها.

ولما استشهد عثمان ﷺ، اختلفت الأمة اختلافًا شديدًا حول الخلافة، ونشأت العديد من المعارك مثل صفين والجمل، ومع ذلك لا نجد تطبيق قاعدة الأخذ بالأحوط من أجل إسكات صوت المرأة. وعلى الرغم من استمرار تأثير المرأة على النظام السياسي كما يتضح من الدور الخطير الذي لعبته السيدة عائشة في موقعة الجمل، لم نجد أحدًا من الصحابة يعترض على دور السيدة عائشة (رضي الله عنها) خارج بيتها حتى في عصر هذه الفتنة الشديدة. لقد واجهت السيدة عائشة عليًا في هذه المعركة مما جعل الانضمام إلى أحد الفريقين غاية في الصعوبة. ولو كان جنس المرأة كافيًا لعزلها عن الدور الاجتماعي والسياسي، لحيل بين السيدة عائشة وبين الخروج ولما خرج معها هذا العدد الكبير من الصحابة. ولو كان يوجد في الشريعة الإسلامية دليل على حبس صوت المرأة في المؤسسات الاجتماعية والسياسية, لما وجدت سيدات آل بيت الحسين ينتهزن أي فرصة لإبراز مهارتهن في الخطابة في بلاط يزيد، حيث كانت كل جملة تخرج من أفواههن توجه ضربةً قاسيةً للنظام السياسي، وحتى ذلك النظام الذي كان بإمكانه أن يكمم أفواه المعارضين مستخدمًا كل أساليب القهر لم يلجأ إلى التذرع بدرء الفتن لحبس

[1] النساء:20

أصوات سيدات أهل البيت. فإذا كان الله ورسوله لم يحرما صوت المرأة خوف الفتنة، فأنى يكون لنا الحق في أن نحرم استماع غير المحارم لصوت المرأة أو نجعله مكروهًا. وإذا أراد أحد تحريم صوت المرأة بعد هذه الأدلة البينة الواضحة، وذهب إلى ما ذهب إليه الأحناف وبعض فقهاء الشافعية من أن صوت المرأة عورة ويجب حبسه أمام الرجال الأجانب خيفت الفتنة أم لا، فيمكن أن نذكرهم بقول الله تعالى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]

ولا علاقة لهذا الاتجاه بالإسلام في شيء.

وللرجال عليهن درجة

لقد أثر ظهور الإسلام على طبقات المجتمع المختلفة ولا سيما العبيد والنساء؛ حيث نظر الإسلام إليهما على أنهما كائن كامل يتمتع بكافة الحقوق والواجبات، وجعل التقوى هي معيار المراتب والدرجات، ولم يعد من الأهمية بمكان كون الشخص عبدًا أو سيدًا، رجلاً أو امرأة، كما نادى الإسلام بتحرير العبيد، وبشر بالجنة كل من رزقه الله بناتًا فأحسن إليهن وقام على تربيتهن تربية سليمة. لقد وجد العبيد والنساء حظا وافرًا من الحرية في ظل الإسلام، وظل الإصلاح الاجتماعي والروحي مستمرًا في المدينة، وبعد أن كان إنجاب البنات بالأمس القريب نكبة للأب وسببًا للعار، أصبحن اليوم شريكًا فعالاً في المهمة المقدسة للنبي ﷺ. لقد نظر الدين الجديد الذي جاء بثورة جديدة إلى المرأة على أنها صاحبة رأي وعقل، ودعا إلى مشاورتها والاستماع إلى نصيحتها، بل إننا نجد بين أقوال النبي ﷺ ما يمكن أن يلفت النظر إلى رجاحة عقل المرأة على الرجل في بعض الأمور. ويوم صلح الحديبية، عندما تردد الجيش الإسلامي في تنفيذ أوامر النبي ﷺ وأنكر معظم الصحابة أمر هذا الصلح إنكارا شديدًا، دخل النبي ﷺ على أم سلمة فزعًا مهمومًا حزينا لتردد أصحابه في الامتثال لأوامره، ثم ذكر لها ما لقي من الناس، فأشارت

---

[1] التوبة : 31

عليه بأن يخرج ولا يكلم أحدًا وأن ينحر هديه ويحلق حتى إذا رآه الناس تبعوه. لقد أدت مشورة أم سلمة إلى حل هذا الموقف الخطير، وكان قبول مشورتها إعلانًا بقبول المشورة الصائبة من المتكلم رجلاً كان أم امرأة. وفي العهود اللاحقة، عندما ضل المجتمع خطى برامج العمل الإسلامي، وضُيعت الأخلاق، وساد اتجاهٌ نحو التحفظ والأخذ بالأحوط، وانحرفت السلطة السياسية عن منهاج النبوة، وسارت على طريق الحكم الملكي، واعتقدت أن السبيل المتاح لخدمة الإسلام هو حماية ما تبقى منه على المستوى العلمي والروحي والاجتماعي، ولم يكن هناك من يقف في وجه هذا الاتجاه الجائر سوى قليل من الناس. وباستشهاد الحسين، وانتشار الحروب الدموية بين المسلمين، رأى كثير من الناس أنه من الأفضل والأصلح للأمة أن يخدم المجتمع الإسلامي على المستوى غير السياسي بعيدًا عن التناحر والصراعات السياسية. وبعد استشهاد الإمام زين العابدين، وموت عمر بن عبد العزيز في ظروف غامضة، ازداد أثر أصحاب هذا الموقف, ثم حدث في الأيام التالية أن حاولت نفسية التحفظ والأخذ بالأحوط طرد المرأة من المجالات التي سمح لها النبي ﷺ بها. لقد ترددت الحالة الأخلاقية للمجتمع الإسلامي، وأصبح من الضروري القضاء على عوامل هذا التردي الأخلاقي ومحاولة إعادة المجتمع الإسلامي إلى المنهج النبوي مرة أخرى، لكن ما حدث هو محاولة طرد النساء من الساحة الاجتماعية تطبيقا لقاعدة الأخذ بالأحوط درءًا للفتن. ويمكنني أن أسوق لكم مثالاً طريفًا يتعلق بالطواف حول الكعبة، حيث ورد أن أمير مكة محمد بن هشام أراد منع الطواف المختلط حول الكعبة تحت ذريعة درء للفتن، لكن اعترض عليه عطاء، وقال كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال؟

إن من يتحرجون من إعطاء المرأة دورًا اجتماعيًا وسياسيًا لا يستندون إلى باب سد الفتن؛ فهم يعلمون أن دواعي الفتن كثيرة في المجتمع غير المسلم، كما يعلمون أيضًا أن الفتنة قد تسربت إلى بيوتنا عن طريق محطات التليفزيون المختلفة وعبر الانترنت ووسائل الإعلام الأخرى. إن ما يمنع هؤلاء من إعطاء المرأة دورًا اجتماعيا هي التصورات والتحفظات السائدة التي توجد في أذهانهم عن المرأة، حيث يوجد لديهم تصور عام بأن المرأة أقل من الرجل فكرًا وعقلاً؛ لذا يجب ألا

يُعهد إليها بالمسؤوليات الاستراتيجية والشئون الهامة لأنها ناقصة عقل. ويرى أصحاب هذه النظرية أن الرجال دائمًا يتفوقون على النساء، ويستندون إلى قول الله

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾.

لقد أسيء استغلال هذه الآية لإثبات أفضلية الرجل وفوقيته على المرأة، كما اتخذ من قل علمه من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

ذريعةً لإذلال جميع نساء العالم, مع أن هذه الآية قد أتت في سياق الحديث عن امرأة العزيز المذنبة. تعالوا أولاً لنتدبر الآية الكريمة:

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾

من خلال سياقها الكامل الذي وردت فيه. قال تعالى:

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [1]

إنه لمن المؤكد أن للرجال عليهن درجة، لكن في أي شيء تكمن هذه الدرجة؟ إن من يدرس هذه الآية بعقل مستنير لن يصعب عليه فهم أنه في إطار العلاقات المعقدة بين الرجل والمرأة، تكون المرأة أكثر تأثرًا من الرجل في حالة حدوث انفصال مفاجئ، فالرجل يمكنه الزواج من أخرى على الفور، لكن على المرأة أن تنتظر لمدة ثلاثة قروء. وخلال هذه المدة يمكن للرجل أن يراجع زوجته إن كانت هناك فرصة للصلح، فكأن حقوق كل واحد منهما متساوية، وليس لأحد منهما أفضلية أو فوقية على الآخر فيما يتعلق بهذا الموضوع. أما فيما يتعلق بالطلاق، فقد

---

[1] البقرة : 228

تمت الإشارة إلى دور الرجل الأساسي من البداية إلى النهاية. إن أحكام الشريعة الخاصة بأمور الانفصال بين الزوجة والزوج، وخاصة الطلاق، قد أعطت للرجل درجة على المرأة، فالرجل يستطيع أن يطلق زوجته في أي وقت شاء، لكن على المرأة أن تلجأ إلى القضاء إذا أرادت الانفصال عن زوجها، وهذه هي الدرجة التي تشير إليها هذه الآية الكريمة.

وبعد هذا الإيضاح التام، إذا أراد أحد، استنادًا إلى هذا الجزء من الآية وبعيدًا عن السياق الذي وردت فيه، أن يضع قاعدةً عامة يؤكد فيها قوامة الرجال على النساء في جميع المجالات، أو إذا أصر على أن جميع رجال العالم أعلى منزلةً من جميع نساء العالم، فهو بذلك يسخر من كتاب الله, لأن القرآن لا يطلق أفضلية قوم أو فرقة أو جنس على وجه العموم، إنما يركز على عمل الفرد كما جاء في قوله تعالى:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [1]

وليسأل أحد هؤلاء القائلين بقوامة الرجال على النساء عمومًا، هل يمكن لأتقى أناس العالم أن يدَّعوا أنهم يتساوون في الدرجة مع آسية أو مريم؟ إن جيش سيدنا علي عندما كان في مواجهة مع جيش السيدة عائشة في معركة الجمل، لم يستطع أحد أن يفضل عليًا على السيدة عائشة على أساس الجنس. وإذا كنا سننتقص من قدر المرأة الروحي والاجتماعي لمجرد أنها امرأة، فكيف يمكن لنا حينئذ أن نقدم المؤمنات الفاضلات كقدوة للرجال المؤمنين؟ قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

[1] النساء: 32

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾. [1]

لقد قدم الله إماء الله الصالحات قدوةً للمؤمنين والمؤمنات، رجالاً ونساءً، وهذا ما يمكن أن نستدل عليه من لفظ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حتى لا يعتقد أحدٌ خطأً أن الخطاب في الآية موجه إلى المؤمنات فقط. إن القرآن الكريم يطالب جميع المؤمنين من الرجال والنساء أن يتبعوا سبيل آسية ومريم إذا أرادوا نيل أعلى درجات الإيمان والفوز ببيتٍ في الجنة بالقرب من ربهم، ولو كان يكفي كون المرء رجلاً لتفوقه، فماذا يكون الهدف وراء دعوة الله إلى اتباع سبيل النساء الصالحات للفوز بقربه؟

وخلق منها زوجها

يوجد لدى البعض تصور حول طبيعة خلْق المرأة على أنها كائن أقل درجة من الرجل، وقد نشأ هذا التصور نتيجة تأثير الروايات اليهودية والمسيحية التي تصور المرأة على أنها قد خُلقت من ضلع الرجل، فكيف يكون للشيء الذي خُلق من أحد أعضاء جسم الرجل درجة متساويةً معه. إن التصور العام السائد يرى أن المرأة ناقصة عقل في كل الأحوال، حتى أن البعض قد نظر إليها على أنها ناقصة عقل ودين معًا استنادًا إلى بعض الروايات الضعيفة. ولو كان هناك نقص حقًا في خلْق المرأة أو إذا افترضنا أنها كائن أقل درجة من الرجل، فلا جرم أن هذا ليس في مصلحة الأمة مع وجود عدد كبير من الرجال يعهدون إلى المرأة بمسؤوليات هامة. ويجب علينا قبل أن نسلم بصحة هذا الافتراض أن نرى ما إذا كان الكتاب والسنة يؤيدانه أم لا؟

[1] التحريم: 11-12

إن كل ما خلق الله تعالى سواءً كان صغيرًا أم كبيرًا يمثل عملاً عبقريًا خاليا من النقص والعيب، وليس ذلك خاصًا بالمرأة فقط. أما الإنسان فقد فضله الله على سائر المخلوقات، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1]، كما قال في مقام آخر: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[2].

فإذا كانت هذه الآية تشير إلى أن جميع البشر قد جبلهم الله على الفطرة السليمة، إذًا فما هو الأساس القرآني الذي يثبت أن المرأة كائن أقل درجة من الرجل، وكيف يتم إخراجها من صفة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم واعتبارها ناقصة عقل؟ تعالوا الآن نلقي نظرة على آية أخرى من كتاب الله، حيث قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[3].

إن القرآن الكريم لم يسق تفاصيل خاصة بـ "الزوج الإنساني" واكتفى بالإشارات العابرة في شأنه، وبذلك نستطيع أن نفهم أن تلك التفاصيل لا تحظ بأهمية كبيرة في بيان الخطوط الرئيسية للحياة التي صورها القرآن الكريم. فما صرح به القرآن هو أن الله قد خلق جميع الرجال والنساء من نفس أو روح واحدة, وخلق من هذه النفس زوجها. إن كلمة "نفس" في اللغة العربية تستخدم مؤنثة إلا أنها في هذا السياق قد استخدمت بمعنى أوسع، وكذلك كلمة "زوج" كلمة مذكرة، ولكنها ذكرت في القرآن بمعناها الواسع, أما حرف الجر "من" فقد يأتي بمعنى "في" وهو يحتمل المعنيين هنا. وخلاصة القول أن هذه الآية تشير إلى وحدة مصدر خلق الإنسان

[1] التين: 4
[2] الروم: 30
[3] النساء: 1

ذكرًا كان أم أنثى، فمرجع خلقه إلى نفس أو روح واحدة, وخميرة هذه الروح أو الطين الذي خلق منه واحدة, بل ولا يستطيع التنوع الجغرافي أن يقيم جدار الأفضلية بينهما؛ لأن المصدر واحد، وهو تلك النفس الواحدة. ثم جاءت الآية بعد ذلك توصي بتقوى الله، وعظم شأن الأرحام. إننا إذا تدبرنا هذه الآية نجد أنها تؤكد على عظمة خلْق المرأة، ولا تعتبرها بحال من الأحوال أقل درجةً من الرجل، كما تنبه الآية أهل الإيمان ألا يتناسوا عند مطالبة المرأة بحقوقها أن مجيئهم إلى هذه الحياة أثر من آثار حنان الأمومة عند المرأة.

وفيما يتعلق بما ورد في الإنجيل من أن المرأة قد خلقت من ضلع الرجل، فنحن نجد أنه ليس هناك مجال لمثل هذه الآراء في النظرة القرآنية للحياة، فالقرآن يعامل الرجل والمرأة بنفس القدر من الأهمية في كل مجالات الحياة، ولا يعتبر المرأة كائنا تابعًا للرجل. إن القرآن لا يؤيد تلك القصة التي وردت في الإنجيل تلقي بالمسئولية الكاملة على خروج آدم من الجنة على المرأة، الأمر الذي أدى إلى شيوع تصور عام يرى أن المرأة أهلا للوساوس والضلال، ولكن على خلاف ذلك، نرى أن القرآن الكريم يلقي بمسئولية الخروج من الجنة على كل من الرجل والمرأة، وهذا ما يؤيده قوله تعالى:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾[1].

الرجال قوامون على النساء

إن الذين ينظرون إلى المرأة على أنها كائن أقل درجة من الرجل يرون أنه يجب عليهم أن يأخذوا بزمام هذا الكائن من أجل إنقاذه من هلاك الدنيا والآخرة، فهم يرون أن رضا المرأة وغضبها وحريتها الشخصية وحقها في اختيار طريق الدنيا

---

[1] طه: 120, 121

والآخرة يجب أن يكون تابعا وخاضعا للرجل. وللاستدلال على صحة رأيهم هذا نجدهم يستندون إلى الآية الكريمة:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾[1]

لقد فسر البعض قوله تعالى: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ خطأً؛ حيث

ذهبوا إلى الاعتقاد أن هذا خطاب عام [sweeping statement] يؤكد قوامة الرجال على النساء، لكن هذا الفهم الخاطئ سوف يُمحى إذا تناولنا هذه الآية بقدر من التعمق في ضوء الرؤية العالمية للقرآن الكريم. وأول ما يجب علينا أن نعلمه هو أن هذه الآية لا تعطي قاعدة عامة لقوامة الرجال على النساء، فالجزء اللاحق من الآية يبين أسباب القوامة، ويفصل ما أجمل في لفظ "قوامون". إن الآية تبين أن الرجال قوامون على النساء، أولاً: بما فضل الله بعضهم على بعض، ثانيًا: بما أنفقوا من أموالهم، فالرجل ينفق على المرأة من ماله، وهذا يوضح أن الرجل إن كان يحظى بدرجة من القوامة فذلك لأن الله قد شرفه بالقيام على شئون أسرته من نفقة وتدبير عيش، وتوفير ضرورات الحياة.

وعندما اختص الله المرأة بالحمل والولادة، اقتضى العدل أن يعفيها من مسئولية تدبير أسباب العيش وضرورات الحياة، كما منح الرجل القوامة بعد تكليفه بالإنفاق، لأن القوامة تعني تدبير العيش وتوفير ضرورات الحياة، وهذا لا يعني أبدًا أن الرجل يتفوق على المرأة، بدنيا، أو روحيًا، أو عقليا. ثم إن إحدى شروط القوامة الأساسية التي يجب توافرها في الرجل لها علاقة بالذكورة أو بالنوع، وهذا هو المقصود بقوله بما فضل الله بعضهم على بعض، أما الشرط الآخر فيشير إلى أن

[1] النساء: 34

الرجل إن قصَّر في تدبير أسباب العيش وضرورات الحياة، فسوف تتعرض قوامته للخطر.

إن الذين يستندون إلى هذه الآية كدليلٍ على أفضلية الرجال يأوِّلون لنفس العلة قول الله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ على أن المراد به هنا هو طاعة الصالحات لبعولتهن، مع أن المراد بالطاعة هنا طاعة الله وليس طاعة الأزواج، فحيثما وردت هذه الكلمة في القرآن فهي تشير إلى طاعة الله تعالى. ونريد أن نسأل الذين يريدون أن يثبتوا من خلال هذه الآية أفضلية الرجال، هل يرون كل رجال العالم قوامين على كل النساء؟ وإلا فمن قوَّامٌ على من؟ في الحقيقة إن هذه الآية لا توجه خطابًا عامًا وإنما تركز على قالب الأسرة الصغيرة، ثم فصلت بعد ذلك ما أجمل موضحةً أنه ليس لكل رجال العالم فضل على جميع النساء، بل لكلٍ منهم فضل على الآخر. إن السبب الذي ذكرته هذه الآية في أفضلية الرجال يتعلق بالمعاش والإنفاق فقط، وليس فيها إشارة إلى طبيعة بنيته القوية, أو تفوقه العقلي أو الروحي. أما من ذهب إلى القول بقوامة الرجل لتفوقه على المستوى العقلي أو الروحي، فهذا ما صنعته عقولهم. إن رفعة الرجل لكونه مسئولاً عن تدبير العيش ونفقات المعيشة هو ما جعله أهلاً لإدارة دفة الأسرة، وحتى يكون رأيه مسموعًا في البيت، فما ناله الرجل بسبب إنفاقه إنما هو مقام الفضل كما ذكر الله تعالى، وهو مقام يتعلق بشئون المعيشة والمعاملات الاقتصادية فقط، أما تفوق الرجل العلمي أو العقلي فيتوقف على جهوده الخاصة. إن على المرأة أن تسلم بالتفوق المعيشي للزوج؛ لأن الله قد شرفه بهذه المسئولية، ولأنه يبذل جهده في سبيل توفير ضرورات الحياة لها، فهو بمنزلة الرئيس في إدارة وتنظيم شئون البيت، لكن ليس من حقه ولا يجوز له أن يطالب المرأة بطاعةٍ عمياء، أو أن يكون رقي المرأة الديني والروحي والعقلي خاضعًا لعطف الزوج وشفقته. إن للزوجة مكانتها المستقلة كمسلمة, وعليها أن تفكر فيما سينفعها في دنياها وآخرتها، كما عليها أن تعلم أنها ستسأل أمام الله، يوم لا ينفع مال ولا بنون، عن دورها ومساهمتها في إقامة المجتمع الصالح، ولن يأتي حينئذٍ لمساعدتها "رجل قوام"، ومن ثم لا يجوز لقوَّام أن يهرب من جهود تمكين الدين

ويمنع زوجته أيضًا من المشاركة في تحقيق هذا الهدف وتلك الرسالة المباركة. قال رسول الله ﷺ : "لا طاعة لمن لا يطع الله".

المرأة والحكم

إن الهوية الأساسية للرجل والمرأة داخل المجتمع الإسلامي تتكون في إطار الأمة، وإن المرأة ركن أصيل في الحركة النبوية مثل الرجل، وكانت دائما عضوًا في الحركات الإصلاحية مفكرةً في مستقبلها. إن المرأة مسئولة على حد سواء مع الرجل عن إقامة نظام إسلامي عادل، فجميع المراحل التي مرت بها الحركة الإسلامية للوصول إلى مرحلة النضج التام كانت المرأة في المقدمة مثل الرجل سواءً كان ذلك ببذل المال أو النفس أو الهجرة أو القتال في سبيل الله، وهذا ما طالبها القرآن الكريم به، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى تعزل المرأة نفسها تمامًا عن الحركة الإسلامية بعد قيام الدولة الإسلامية. كيف يمكن أن تنأى المرأة بنفسها وفكرها عن المجتمع الذي ضحت من أجله بنفسها ومالها، ثم إذا كان الإسلام لا ينظر إلى المرأة على أنها أقل من الرجل روحيًا وعقليًا، فليس هناك ما يدعو إلى منع إماء الله من التدخل في شئون الحكم. لقد كانت النساء المسلمات يُستشرن في الأمور الاستراتيجية الهامة في عهد الخلفاء الراشدين، وكان رأيهن موضع احترام وتقدير عند انتخاب الخليفة. ويمكننا أن نرى ذلك عندما انتهت قائمة الأسماء المقترحة لمنصب الخلافة بعد وفاة سيدنا عمر إلى سيدنا عثمان وعلى ﷺ، ولما كانت مسألة الاختيار بين الاثنين مسألة حساسة، نجد سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ يستشير نساء المسلمات ممن كانت لهم مكانة خاصة لمعرفة رأيهن في هذا الأمر (البداية والنهاية). إن المرأة المسلمة تبنت موقفًا استراتيجيًا ما على مسئوليتها الشخصية، فعلى الدولة الإسلامية أن تضع هذا الموقف موضع احترام وتقدير. فهذه أم هانئ بنت أبي طالب تقول: لما نزل رسول الله ﷺ على مكة، فر إلي رجلان من أحمائي من بني مخزوم، قالت فدخل عليَّ علي بن أبي طالب أخي، فقال والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ فقال: "مرحبا وأهلا يا أم

هانئ ما جاء بك ؟" فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال "قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلهما".[1]

ويزداد هذا الأمر وضوحًا من قيادة السيدة عائشة لموقعة الجمل، ومحاولتها إعادة شئون الحكم إلى مسارها الصحيح، وهذا يفيد أن المرأة المسلمة لم تكن يومًا منعزلة عن أمور الدولة وشئون الحكم. ومع استشهاد عثمان ﷺ بدا أن الدولة الإسلامية في خطر عظيم, وبدأت أنظمة الحكم في الانهيار، وأصبح الطغاة ودعاة الفتنة يعيثون في الأرض فسادًا، وسادت الاضطرابات والفتن لدرجة أن رجلاً صاحب عزم مثل سيدنا على قد فقد الأمل, ورفض قبول مسئولية الخلافة. وعندما هدأت الفتنة قليلاً، وأحس الخليفة بعجزه عن مواجهة الطغاة، كان أمام السيدة عائشة خياران: إما أن ترى الدولة الإسلامية تنهار أمام أعينها، وإما أن تقوم بعملية الإصلاح بنفسها، فاختارت الأمر الثاني، وأرسلت سفراء كثيرين إلى جميع أنحاء الدولة، وطلبت من المسلمين مساعدتها في عملية الإصلاح، لكن موقعة الجمل لم تتمخض عن نتائج مشجعة، وأريقت فيها دماء المسلمين بشكل مريع، وبالتالي لم تحقق النتائج المرجوة. إن هزيمة السيدة عائشة في موقعة الجمل قد ولدت شعورًا عامًا لدى المسلمين أنه يتعذر إحراز النصر في أي معركة تقودها المرأة، وهذا هو الاتجاه الذي يسيطر على عقول المسلمين اليوم بشأن الخروج في سبيل الله، ومرد ذلك على وجه التقريب هو خدمة الإسلام بعيدًا عن التناحر والقتال. ورغم محاولات المسلمين الحثيثة المتواصلة خلال القرن الأول للعودة بالخلافة إلى النهج النبوي إلا أنها قد باءت بالفشل، واستشهد الحسين وأهل بيته. وعندما تعذر على المسلمين إزالة النظام الملكي، ساد شعور عام بأن مصلحة الأمة تكمن في الاحتراز عن التناحر والصراعات مع إقامة الدين في المناحي الأخرى للحياة بعيدًا عن السلطان الجائر. ومع مرور الزمن، اتخذ العلماء من هذا الاتجاه مبدأً لهم في حياتهم لدرجة أن عددًا كبيرًا منهم لا يزال على هذا النهج إلى اليوم. لقد نشأت مثل هذه المواقف السلبية المتعلقة بقيادة المرأة إثر هزيمة السيدة عائشة في موقعة الجمل، وهنا بدأت رواية حديث: "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"، وإلا فما كان لأمة تتغير مواقفها

[1] رواه الشيخان

بناء على آية أو حديث وتنقلب موازين حروبها بمجرد رفع المصحف وتحكيمه أن تؤازر عائشة (رضي الله عنها) مع وجود هذا الحديث، فلو قُدِّم هذا الحديث للناس قبل الحرب، لما رُفعت يد لمؤازرة عائشة، ولما تمكنت من قيادة المسلمين.

وإذا كان الإسلام لا يفرق بين أحد بسبب الجنس أو اللون، بل يؤكد بشدة:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾

فكيف لنبيه أن يعزل مؤمنة عاقلة عن منصب القيادة لمجرد أنها امرأة، فهل حقا لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة؟ تعالوا لنرى ماذا يقول القرآن في هذا الشأن. لقد ذكر القرآن الكريم قصة بلقيس ملكة سبأ، ووصفها بأنها:

﴿ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾

ومع ذلك لم تكن البتة سببًا في هلاك قومها، بل على النقيض تماما، كانت حكمتها وبصيرتها سببًا ليس في اتباعها الحق وحدها بل في قيادة قومها كذلك إلى اتباع الصراط المستقيم، كما أكد القرآن على أن تحول هؤلاء القوم من عبادة غير الله إلى عبادة الله كان مرجعه إلى قيادة هذه المرأة. وانظر كيف كانت بلقيس مستعدة لقبول الحق والفوز بالآخرة عندما أرسل إليها سليمان رسالة يدعوها إلى الإيمان:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.[1]

ثم تأتى اللحظة التي تعلن فيها إسلامها:

---

[1] النمل 29 - 35

﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1]

إن الجانب الأكثر وضوحًا في هذه الواقعة هو موقف بلقيس الباحث عن الحقيقة منذ وصول رسالة سليمان وحتى اعتناقها الإسلام، فقد وصفت رسالة سليمان بأنها "كتابٌ كريم"، ولم ترفضه مع وجودها في السلطة وتربعها على العرش، كما لم تلتفت إلى رأي بعض حاشيتها الذين رأوا أنه يمكن التعامل مع هذه الرسالة بالقوة، بل على العكس كان موقفها موقف الباحث الصادق عن الحقيقة. وعندما أرسلت رسلها بالهدايا كانت تريد معرفة ما إذا كان سليمان نبي حقًا، أم أنها مجرد رغبة منه لتوسيع سلطانه؛ لذا عندما تحققت من نبوة سليمان، منَّ الله عليها بالإيمان، وأعلنت على الفور بأنها أسلمت نفسها لله رب العالمين دون حاجة إلى استشارة أحد من قومها. لقد سافرت بلقيس وحدها في سبيل البحث عن عبادة الله الواحد، واتباع الهدى، وترك الضلال وعبادة الشمس، ولم تكن هي الفائزة وحدها بل قادت قومها إلى الفلاح، وهذا يثبت أن فلاح أي قومٍ لا يتوقف على أن تكون القيادة في يد رجل أو امرأة. إن الخصائص التي يجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب هي الاستعداد لقبول الحق ومخافة الله والعلم والحكمة، فإذا ما اجتمعت هذه الخصائص في امرأة ما فستكون مثالاً للأجيال القادمة كما كانت حكمة وبصيرة ملكة سبأ نموذجا يُحتذى به. وهذه الخصائص إن تخلى عنها القائد حتى لو كان رجلاً، فلن يترك وراءه سوى تاريخه المتعنت وغروره الباطل كما هي صورة أبرهة التي أصبحت عبرة للأجيال؛ حيث لم يتسبب في هلاك نفسه فقط بل تسبب في هلاك قومه معه.

المرأة والحياة الاجتماعية

إن المجتمع الإسلامي مجتمع عقائدي له خصائصه وصفاته المميزة له عن غيره من المجتمعات، فهو في ذاته حركة مستقلة، وكل فرد من أفراد هذا المجتمع، الرجل والمرأة، الشيخ والشاب، يخشى أن يقصر في أداء مهمة خلافة الأرض التي شرفه الله بها. إن النظام العادل الذي يشترك في إقامته كلاً من الرجل والمرأة على

[1] النمل 44

السواء، كما يتحمل كل منهما مسئولية حمايته وتطويره لا يمكن أن يتصور منه أن يعزل النساء عن الحياة العامة. إن المرأة تتحرك في المجتمع الإسلامي مثل الرجل إلا أن حركتها تخضع لبعض القيود التي فرضها عليها الإسلام، فهي مع الالتزام بآداب الحجاب تستطيع أن تستفيد من مواهبها في مجالات الحياة المختلفة. لقد منحها الإسلام حق الملكية والقيام عليها، مع كامل الحرية في استثمار أموالها في التجارة أو الصناعة أو غير ذلك. ونجد قيلة أم بني أنمار من أوائل النساء اللاتي اشتغلن بالتجارة في عهد رسول الله ﷺ، وروى الترمذي عن أبى ياسر قصة امرأة جاءت إليه لشراء شيء، أما سيدنا عمر فقد عين الشفاء بنت عبد الله على سوق المدينة.[1] ولننظر في قصة أسماء بنت أبي بكر لنرى كيف كانت المرأة عونًا للرجل في شئونه وأموره خارج البيت، وليتنا نتدبر هذه القصة لنرى كيف كانت حركة المرأة في العهد النبوي ونشاطها داخل المجتمع. قالت أسماء: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، وأستقي الماء، وأعجن، ولي جارات من الأنصار يخبزن لي، وأنقل النوى من أرض الزبير على رأسي على ثلثي فرسخ. فجئت يومًا والنوى على رأسي فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر فدعاني، فاستحييت وذكرت الزبير وغيرته، قالت: فمضى...الحديث". إن الإسلام لا يقبل الفصل بين الرجل والمرأة، كما لا يسمح بالاختلاط المطلق (free mixing)، ولا يبح حبس النساء في البيوت، كما لا يسمح لهن بتعدي حدود الله أو حضور حفلات الرقص والطرب. فالرجل والمرأة يلتقيان خارج البيت في المجالس العامة وفي الشارع، وإذا رأى أحد الرجال سيدةً ما في مشكلة تقدم لمساعدتها، فهذا عمل لا يغضب أحدًا من الأتقياء. ولننظر كيف قص علينا القرآن الكريم لقاء سيدنا موسى (عليه السلام) ببنات سيدنا شعيب(عليه السلام):

---

[1] الإصابة

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.[1]

إن المسجد هو شريان الحياة الاجتماعية؛ لذا أبقى الإسلام بابه مفتوحًا في وجه المرأة كما الرجل. وإذا كان الإسلام قد أعفى المرأة من صلاة الجمعة، فهذا لا يعني أن يقوم أحد بطرد المرأة من حياة المسجد السياسية والاجتماعية مستندًا إلى هذه الرخصة، فالنبي ﷺ قال: **"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"**. وقد ذكر الإمام مسلم حادثة ابن عمر مع ابنه الذي أراد أن يمنع امرأته من الذهاب إلى المسجد، فقال له أبوه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"** فقال بلال بن عبد الله بن عمر ـ أي الابن ـ: والله لنمنعهن**!!** فأقبل عليه أبوه فسبه سبا سيئًا، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ، وتقول: والله لنمنعهن**؟!** إن الشريعة الإسلامية تبيح للمرأة مواصلة نشاطها في المسجد مهما كانت الأوضاع خارج البيت سواء كان ذلك ليلاً أم نهارًا. وإذا كان الإسلام قد أجاز وجود النساء في الأماكن المقدسة كالحرم المكي والنبوي، وأقر مشاركتهن في تجمع عظيم كالحج، فكيف نمنعهن من المشاركة في الحياة الاجتماعية والدينية اليومية. لقد كان يندر في عهد النبي ﷺ أن يكون هناك تجمع عام (public gathering) دون أن تشارك المرأة فيه. لقد كان النبي ﷺ يحث النساء أن يخرجن في العيدين إلى المصلى من غير فرق بين البكر والثيب والشابة والعجوز والحُيَّض؛ ليشهدن الخير ودعوة المسلمين، ولكن تعتزل الحيض اللواتي عليهن الحيض المصلى.[2] وفي العهد النبوي، كان الرجال والنساء يشاركن سويًا في الاجتماعات التي كانت تُعقد في المسجد النبوي, وإذا ما أمعنا النظر في الروايات الواردة يتبين أن النساء لم يشاركن في هذه الاجتماعات كمستمعاتٍ فحسب بل كن يشاركن في المناقشات بصورة فعالة، حتى أن هناك امرأة قد سألت النبي ﷺ

[1] القصص: 23
[2] البخاري.

ذات مرة وهو يخطب لماذا النساء أكثر أهل النار؟[1] كما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ صلى ذات يوم ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: ثم أقبل على الرجال فقال: هل منكم الرجل إذا أتى أهله، فأغلق عليه بابه، وألقى عليه ستره، واستتر بستر الله؟ قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول: فعلت كذا، فعلت كذا؟ قال: فسكتوا، قال: فأقبل على النساء، فقال: هل منكن من تحدِّث؟ فسكتن. فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ﷺ ليراها ويسمع كلامها، فقالت: يا رسول الله، إنهم ليتحدثون وإنهن ليتحدثنه، فقال: هل تدرون ما مثل ذلك؟ فقال: إنما ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السكة، فقضى منها حاجته، والناس ينظرون إليه.[2] ولما شعرت النساء أن هناك صعوبة في الاستماع إلى النبي ﷺ مع كثرة الحضور إضافة إلى رغبتهن في التزود من العلم ما يخصهنَّ، ويتعلق بشئونهنَّ، مما ينفردن به عن الرجال، جئن إلى النبي ﷺ فقلن يا رسول الله "ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله" فاستجاب النبي ﷺ وخصص لها أياما يجتمعن فيها.

المرأة وساحة الحرب

عندما يُحكِم المجتمع الإسلامي بنيان دولة إسلامية قوية تعمل فيها الجيوش الإسلامية على نشر الإسلام في ربوع المعمورة، عندئذٍ لا تقع على المرأة مسئولية المشاركة المباشرة في الحرب، وعندما يتمكن الرجال المؤمنون من القيام بهذا العمل على الوجه الأكمل، فللمرأة رخصة كاملة بعدم المشاركة في الحرب. نعم إذا أرادت المرأة في هذه الحالة المشاركة في الحرب، فهذا قرارها الذي يمكنها أن تأخذه طواعية. أما إذا كان الإسلام والمسلمون في حالة من الذلة والهوان، حيث يسري الضعف في جسد الأمة بأكملها لتمر بأسوأ مراحل تاريخها، وحيث لا يمكن قلب نظام الكفر العالمي رغم الجهود الجبارة التي يبذلها الرجال المؤمنون، ففي مثل

---

[1] مسلم
[2] أبو داود وأحمد.

هذا الموقف الخطير، يتوقع القرآن الكريم أن تقوم النساء مثل الرجال بالتضحية بالنفس والمال في سبيل الله. قال تعالى

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1]

إن سبب نزول هذه الآية القرآنية هو تصوير حال الأمة إبان سعيها لإقامة نظام صالح مُحكم. لقد كانت بدر وأحد علامتين فارقتين في حياة الأمة، وعليهما كانت تتوقف حياة الأمة أو موتها، وكان المسلمون في هذا الوقت يعانون قلة في العدد والعدة، كما كانت الحاجة ماسة لبذل كل ما لدى الأمة من قوة في سبيل نصرة هذا الدين، وهذا هو ما كان وراء مشاركة النساء في المعارك الحربية قبل إحكام بنيان الدولة الإسلامية وفتح مكة. لكن بعد إحكام بنيان الدولة، وإذلال الكفر، لا نجد ذكرًا كثيرًا عن مشاركةٍ منظمةٍ للنساء في الحروب. لقد كانت النساء المسلمات يشاركن بحماس شديد في المعارك على عهد النبي ﷺ، وكان دورهن ممثلاً في الأعمال شبه العسكرية (paramilitary staff)، وكن ينزلن إلى ساحة الوغى لمواجهة العدو في حالة استشعارهن أن الجيش الإسلامي يواجه خطرا بالغًا أو موقفًا حرجًا. روى البخاري عن أنس، أنه لما أصاب المسلمون ما أصابهم في أحد، رأى عائشة وأم سليم تحملان القرب على ظهورهما إلى الجرحى يسقينهم ويغسلن جراحهم. لقد أصبحت لمعركة أحد أهمية خاصة بعد انتصار المسلمين في بدر، فمستقبل الأمة كان متوقفًا عليها، لذلك تم التخطيط لها والتعامل معها بطريقة خاصة، فبذلت الأمة كل ما لديها من قوة في هذه المعركة، ولذلك فإننا نلاحظ أن مشاركة النساء الفاعلة قد برزت في غزوة أحد عن غيرها من الغزوات. إن ما أبدته نسيبة بنت كعب من شجاعة نادرة في هذه المعركة قد نقله المؤرخون إلينا، ونسيبة إن كانت قد شاركت

[1] آل عمران: 195

في غزوة أحد بنية سقاية الجرحى، إلا أنها لما رأت أن المعركة قد دخلت في مرحلة حاسمة، أخذت قرار مباشرة الحرب في ميدان القتال، وقاتلت قتالاً شديدًا، وأبلت بلاءً حسنًا، فقذفت الرعب في قلب العدو. ولما انكشف الناس عن رسول الله ﷺ وباتت ذات النبي ﷺ في خطر بالغ، انتهت نسيبة في هذه اللحظة الحرجة إلى النبي ﷺ تذب وتذود عنه.[1] وقد أثنى النبي ﷺ كثيرًا على شجاعة نسيبة الفائقة ودعا لها.

وقد برزت أسماء بعض النساء في الأحاديث الواردة، كما برزت مكانتهن الرفيعة التي حظين بها إثر مشاركتهن في مداواة الجرحى في الجيش الإسلامي، فليلى الغفارية أحد النساء اللاتي لم يتوانين عن المشاركة مع النبي ﷺ في معاركه الحربية، كما كن يتمتعن بملكة خاصة في علاج الجرحى وعيادة المرضى،[2] وتؤكد رواية البخاري أن النساء كن يسقين العطشى، ويداوين الجرحى، وينقلن جثث الشهداء إلى المدينة، ومن الأسماء البارزة التي شاركت في الفرقة الطبية في غزوة أحد حمنة بنت جحش. إن المسلمات على عهد النبي ﷺ ما اعتبرن أنفسهن كائنات عاجزةً ضعيفة، ولا اعتقدن أن مسئولية حمايتهن في لحظات الخطر تقع على عاتق الرجال وحدهم، ولكن كن إذا رأين أن الغلبة قد خرجت عن أيدي الرجال المسلمين، واستشعرن الخطر على حياتهن وحياة أولادهن، بادرن بحمل لواء الدفاع مباشرةً. وفي غزوة الخندق، كان جيش العدو يفوق المسلمين عددًا وعدة، وكانت ساحة المواجهة واسعة للغاية، ولم يكن ممكنًا أن تُخصص كتيبة من الرجال لحماية النساء؛ لذا قام النبي ﷺ بوضع الصبيان والنساء في حصن يقال له (فارع) وترك معهن حسان بن ثابت. ولم يكن ثمة خوف من أن يتعرض الحصن للهجوم؛ حيث كان العدو لا يعرف الصورة الحقيقية داخله، وفي الوقت ذاته جاء يهودي فرقي جدار الحصن حتى كاد أن يعرف صورته الحقيقية، عندها أدركت صفية بنت عبد المطلب حساسية الموقف، فخاطرت بنفسها وقتلت هذا اليهودي.[3] وتذكر بعض

---

[1] الطبقات
[2] الإصابة
[3] الإصابة.

الروايات أنها قد ضربته حتى قطعت رقبته وأخذتها وطرحتها على اليهود وهم أسفل الحصن، حتى يظنوا أن هذا الحصن في منعة من الجيش الإسلامي، فلا يجترئون على الهجوم عليه.

إن مشاركة المرأة في الحروب لم تكن قاصرة على الدفاع، بل كانت المرأة لديها القدرة على المشاركة فيما يتجاوز نطاق الأعمال شبه العسكرية، وهناك أمثلة تبين أن النساء قد شاركن مشاركة حقيقيةً في الجهاد جنبا إلى جنب مع الرجل، فقد ورد أن أم الضحاك بنت مسعود قد شهدت فتح خيبر، وأعطاها النبي ﷺ نصيبًا من الغنيمة مثل الرجل، كما أن نسيبة بنت كعب التي أشرنا آنفًا عن مشاركتها في غزوة أحد، قد شاركت في موقعة اليمامة، حيث قُطعت يدها، واستُشهد ابنها عبد الله.[1] كما جاء أن أم سليم بنت ملحان كانت تحمل معها خنجرا يوم حنين، ومن يستطيع أن ينسى بشرى النبي ﷺ لأم حرام بنت ملحان، حيث ورد في البخاري أنه ﷺ أخبرها أن أناسا من أمته يركبون البحر الأخضر غزاة في سبيل الله مثلهم مثل الملوك على الأسرة، فقالت بنت ملحان: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها النبي ﷺ مع علمه أنها امرأة، بالمشاركة في المعارك الحربية.

الحجاب لكن إلى أي مدى

إن الاتجاه العام السائد هو أن الحجاب حكم واجب من أحكام الإسلام، ولكنه في نفس الوقت لا يمكن العمل به في هذا العصر، وهو السبب الذي أدى إلى اختفاء الحجاب من البيوت شيئًا فشيئًا، لتنتشر ثقافة البيئة الحرة التي يسود فيها الاختلاط. وتلك البيئة لا تتمرد على الحجاب في حد ذاته من الناحية النظرية، إلا أن الاعتقاد السائد لديها هو أننا لا يمكننا أن نساير العصر أو أن نسيطر على الإيقاع السريع لهذا العصر مع ارتداء الحجاب، فكما يعتقد كثيرٌ من المسلمين أنه يمكن العمل بأحكام الإسلام دون إقامة نظام إسلامي، رأينا كثيرًا من أخواتنا يعملن على إقامة

[1] الإصابة.

حياة دينية ودنيوية ناجحة دون الالتزام بالحجاب، مع وجود الشوق للعبادة وعمل ما ينفع المرء في الآخرة.

إن مفهوم الحجاب في أذهان العامة متناقض ومختلف لدرجة أنه يصعب على المرأة المسلمة في ظل هذا التناقض أن تحدد مفهوم الحجاب الذي فرضه الله ورسوله؟ إن النساء اللاتي أدركن مراحل فرضية الحجاب، وخضن متغيرات الحياة وأنشطتها المتنوعة، حتى أصبح من الواجب عليهن الالتزام بأحكام الحجاب التي فرضها الله ورسوله, رأين مع ذلك أنه لا يمكن الالتزام بالحجاب في ظل قوانين العصر الرائجة؛ وذلك لأن التقاليد الجامدة السائدة في مجتمعنا باسم الحجاب لا يمكن أن تتناسب مع الإيقاع السريع للحياة. ونتيجةً لذلك، فإنه كلما تزداد عادة خروج المسلمات من بيوتهن، يختفي الحجاب من مجتمعنا. إن اللاتي التزمن بالحجاب في الوقت الحاضر، وذكرن الأدلة التي تؤيده، قد وقعوا في بعض الأحيان ضحايا للتطرف، أما اللاتي تحررن عن كل القيود، وابتعدن في سباق الحياة المادية عن تنفيذ الأوامر الإلهية بارتداء الحجاب، فقد ضلوا الصراط المستقيم. إن الحاجة ماسة لإعادة المرأة المسلمة إلى المجتمع المسلم, ولا بد أن يتسع صدر المجتمع المسلم بقدرٍ تنعم معه أخواتنا بحرية الفكر والعمل في ظل مجتمع إسلامي أكثر مما تنعم به في ظل أي نظام آخر غير إسلامي، وهذا يمكن أن يتحقق إذا أعطى المجتمع المسلم للمرأة المسلمة كل الحقوق التي أعطاها الله ورسوله وسلبها المجتمع إياها.

إن الحجاب رمز لحرية المرأة المسلمة، والجلباب لا يعطي المرأة المسلمة شعورًا بالطمأنينة فحسب، بل هو إعلانٌ أن المرأة المسلمة تستطيع مع التزامها بأحكام الحجاب الشرعية أن تؤدي دورها البناء في حياة الأمة. إنه إعلانٌ بأن الإسلام قد منح الفرصة للرجل والمرأة على السواء، فجعل كلاً منهما يفعل ما يشاء التماسًا لرضا الله، ومن أجل إقامة مجتمع صالح، ولإعلاء كلمة الله، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيما يتعلق بالحياة الاجتماعية خارج البيت، فقد أقر الإسلام بعض القواعد والتوجيهات للرجل والمرأة على حد سواء، حتى يصبحان معًا في منعة من الوساوس البشرية، وهم يبذلون جهدهم ليل نهار لبناء مجتمع

صالح. وخشيةً أن يحدث تصرف اجتماعي ما يؤدي إلى خسارة من خرجوا إلى ميدان الحياة الاجتماعية يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا بدلاً من فوزهم بالدرجات العلى، جاء القرآن يخاطب المؤمنين

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ويخاطب المؤمنات ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[1]

وبالإضافة إلى هذا، طلب منهن أن لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وأن يضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن، وبذلك خص القرآن حركة المرأة في مقابل الرجل ببعض الأحكام الخاصة، ثم نبه في بعض الآيات الأخرى ذات الصلة بما يجب على المرأة المسلمة اختياره عندما تكون خارج البيت. لقد اكتفى بالخمار داخل البيت، أما خارج البيت فقد جاء شرط الالتزام بالرداء الكبير (يعنى الجلباب). وفيما يتعلق بتوقيت خروج المرأة المسلمة من بيتها، متى يجوز ومتى لا يجوز؟ أو أي الأعمال التي تمثل ضرورة لها وأيها ليس كذلك؟ في الواقع، ليس هناك خط فاصل في هذا الشأن، بل هو متروكٌ إلى ما يراه الناس صالحًا وصوابًا لحركتهن التي تساعد في بناء مجتمع إسلامي طاهر، وأي نوع من الأنشطة يمكن أن تشارك فيها دون تعريض حرمة المجتمع للخطر. إن المجتمع الإسلامي له الحرية في أن يقرر ذلك بنفسه، آخذا في الاعتبار مبادئ الإسلام الأساسية عند بناء مجتمع إسلامي قوي، كما عليه أن يقرر نوع النشاط المطلوب من الرجل والمرأة، مع الوضع في الاعتبار أن نوع النشاط لكلٍ من الرجل والمرأة يمكن أن يتغير بتغير حاجات المجتمع المسلم. ويمكننا أن نلحظ ذلك في ساحة الجهاد؛ حيث إنه إذا دعت الضرورة بحيث لم تعد قوة الرجال كافية أو لم يعد بوسعهم وحدهم حماية المجتمع المسلم من العدو، عندئذ تقع على عاتق المسلمات مسئولية إضافية. إن الضرورات الاجتماعية والسياسية المتغيرة تشكل دورًا جديدًا

---

[1] النور: 30-31

للمرأة، فما يقع على عاتق المسلمات من مسؤوليات في حالات الضرورة، لا يطالبن به في الأحوال العادية، وبذلك يكون دور الرجل والمرأة في الحياة الاجتماعية دورًا متجددًا؛ فالمرأة قد يكون عملها خارج بيتها أفضل مما يجعلها مستحقة للثواب، وأحيانًا يكون قيامها بمسؤولياتها تجاه بيتها أولى، لأن صرف النظر عنها قد يؤدي إلى تزعزع الاستقرار الأسري.

إن الإسلام يقدم نظامًا صالحًا للعمل في كل العصور، وليس ثمة سبب يجعل القيود الأخلاقية وحدود الاختلاط بين الرجل والمرأة التي فرضها الإسلام غير صالحة للعمل في عصرنا. ويجب أن نضع في الاعتبار أن الإسلام إذ يطالب المرأة المسلمة بالالتزام بالحجاب، فمعنى هذا أنه صالح للعمل به في كل عصر ومصر, وهذا لا يعطي كبار فقهاء العصر الحق في التساهل مع وجود أحكام القرآن المحكمة، ولا يسمح لأحد بإضافة شيء من نفسه على ما كلف الله تعالى به المؤمنات من ارتداء الحجاب.

إننا نرى أن الالتزام بالحجاب الذي أمر به القرآن الكريم لم يكن من الصعوبة بمكان في الماضي أو الحاضر، فالقضية إنما تثار عندما نضيف من عند أنفسنا على شرح وتفسير أحكام القرآن المتعلقة بالحجاب تحت مسمى الأخذ بالحيطة في الدين، ونتناسى وقتها أن ديننا قد حذرنا من الغلو فيه إذ يقول نبي الإسلام ﷺ: "إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين"، وعلينا أيضًا أن نتذكر قول الله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾

الحجاب في القرآن

وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى نوعين من الحجاب، الأول: خاص بأزواج النبي ﷺ، والثاني: خطاب لعامة المؤمنات. ونلاحظ أن أحكام الحجاب الواردة في الآيات التي تتعلق بأمهات المؤمنين هي أحكامٌ صارمة، بل إن الآية التي وردت فيها كلمة الحجاب والتي تعرف عمومًا بآية الحجاب، تعطي درسًا للمسلمين

في آداب زيارة بيت النبي ﷺ، حيث تأمرهم الآية بأنهم إذا أرادوا أن يسألوا أزواج النبي ﷺ متاعًا، فليسألوهن من وراء حجاب، ثم صرحت الآية بعد ذلك أنه لا يحق لأحد أن ينكح أزواج النبي ﷺ من بعده، لأن ذلك كان عند الله عظيمًا. ولنتدبر الآن هذه الآية الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1]

وهذه الآية تدور حول ثلاثة محاور أساسية:

أولاً: الآداب التي يجب الالتزام بها إذا جاءت الدعوة من بيت النبي ﷺ.

ثانيًا: إذا دعت الحاجة لسؤال أزواج النبي ﷺ، فكيف يكون السؤال؟

ثالثًا، لا يجوز لأحد أن يتزوج من نساء النبي ﷺ من بعده.

إن شرط التحدث من وراء حجابٍ مع أزواج النبي ﷺ، فلأنهن لسن كأحدٍ من النساء, قال تعالى:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ

[1] الأحزاب: 53

ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [1]

وفي الآيات السابقة على هذه الآيات، يخاطب القرآن الكريم أزواج النبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾[2]

إن من الطبيعي أن يقع التشديد على من وعدهم الله بثوابٍ خاص، وبشرهم بمضاعفة الأجر، فمطالبة مستحقي الفضل بعمل خاص أمر فطري وطبيعي. وبعد ذلك يأتي الخطاب لنساء النبي ﷺ بأنهن لسن كعامة النساء، وأن بيوتهن ليست كعامة البيوت، إنما هي بيوت النبي الذي أرسله الله ليُعلِّم الكتاب والحكمة. إن هذا التكريم غير العادي لا تحظى به البيوت الأخرى، ويقتضي من نساء النبي ﷺ أن يقرن في بيوتهن يذكرن آيات العلم والحكمة، فالله يريد أن يذهب الرجس عن أهل البيت الذي حظي بمقام النبوة. هذا هو التشديد الذي أقامه القرآن الكريم على أزواج النبي ﷺ، ومن يستدل بعد ذلك بهذه الآيات ليثبت أن هذه الأحكام تسري على عامة المؤمنات، فعليه أيضًا أن يضمن أيضًا تضعيف الأجر مقابل الالتزام بهذا التشديد.

إن الدارس المبتدئ لعلوم القرآن يعلم جيدًا لماذا جاء الخطاب الموجه إلى "نساء النبي" مستقلاً عن الخطاب الموجه لـ "نساء المؤمنين"؟ إن السبب واضح

---

[1] الأحزاب: 32: 34
[2] الأحزاب: 28-31

جلي، فهذه الأحكام الخاصة تطالب الأزواج الطاهرات بانتهاج أسلوب خاص في الحياة. لقد نبه القرآن نساء النبي على أن أدنى خطأ يقع منهن قد يكون سببا في انتهاك قدسية أهل البيت، وطالبهن إن كن يردن الدار الآخرة، أن يلتزمن بما أمرهن الله ورسوله. وفي المقابل، لم يبشر القرآن أزواج النبي بمضاعفة الأجر فحسب، بل شرفهن أيضا فجعلهن أمهات المؤمنين؛ ولذلك لا يجوز لأحد بعد وفاة النبي ﷺ أن ينكحهن. ولو جعلنا الأمر الخاص بنساء النبي في هذه الآيات عامًا على نساء المؤمنين أخذًا بمبدأ القياس، لنتج عن هذا موقف مثير للضحك، كما أنه لن يمكن الإجابة عن السؤال التالي، وهو: لماذا خوطبت نساء المؤمنين خطابا مستقلا في السورة نفسها؟

إننا إذا ما تناولنا الآيات التي تخاطب عامة المؤمنات, نجد أسلوب الخطاب العام الذي جاء في القرآن على النحو التالي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ 1

ثم أعطى القرآن قدرًا من التفصيل لهذه المسألة في سورة النور كما جاء في قوله تعالى:

﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ

[1] الأحزاب: 59

يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ 1

فهاتان الآيتان اللتان تحددان أحكام الحجاب يمكن أن نستنبط منهما بعض الأحكام على النحو التالي:

يجب على نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن عند خروجهن من بيوتهن.

يجب على المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم.

لا يجوز للمؤمنات أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ولم يمكن إخفاؤه.

يجب على المؤمنات تغطية صدورهن.

يجب على المؤمنات أن يخفين زينتهن إلا مع المحارم.

لا يجوز للمؤمنات أن يضربن بأرجلهن ليلتفت الناس إلى زينتهن.

هذه هي الأحكام الأساسية التي يجب على كل مسلمة الالتزام بها، فهي أحكام لا يمكن الإفراط أو التفريط فيها, ويمكن للمرأة المسلمة مع التزامها بهذه الأحكام أن تشارك حسب قدراتها في بناء المجتمع المسلم.

إن ما يقصد بالجلباب كما ورد في الأحاديث هو الملاءة أو الرداء التي كانت النساء عادة ما يلبسنه عند الخروج من البيت. روى الشيخان عن أم عطية أنها قالت: لما أمرنا رسول الله ﷺ بالمشاركة في صلاة العيدين، قلنا يا رسول الله: إحدانا لا يكون لها جلبابا، فقال ﷺ "لتلبسها أختها من جلبابها"، أما الخمار فهو رداء صغير تغطي به المرأة رأسها وينسدل على نحرها وصدرها، جاء في الحديث: "لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار" ويمكن أن نستخلص مما سبق أن الجلباب والخمار إنما يغطى بهما الرأس والصدر لا الوجه, إضافة إلى أنه لم يرد حكم في

[1] النور: 30-31

هذه الآيات يأمر بتغطية الوجه. إن الذين أخذوا من هذه الآية وجوب تغطية الوجه قد أوّلوا قول الله تعالى:

﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾

على أن المقصود منه أن "يسدلن أطراف الرداء على أنفسهن". إن من له أدنى ذوق باللغة العربية يمكنه أن يفهم أن هذا تأويل لا داعي له, فهو لا يوافق المعنى اللغوي, حيث إن لفظ "أدنى" في اللغة العربية يفيد "التقريب"، كما كتب الراغب الأصفهاني في المفردات: "دانيت بين الأمرين, أدنيت أحدهما من الآخر". قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: "تدني الجلباب إلى وجهها ولا تضرب به".

أما فيما يتعلق بستر الوجه، فهذا حكم خاص بأزواج النبي ﷺ. روى البخاري عن أنس أنه "لما اصطفى النبي ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب لنفسه غداة فتح خيبر، قال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ فقالوا: إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه". ويرى جمهور العلماء أن الوجه ليس بعورة، وهذا ما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعي، كما ورد أن النبي ﷺ قد نهى المرأة المحرمة عن تغطية الوجه ولبس القفازين. وتجد الإشارة إلى أن من ذهب إلى وجوب ستر الوجه قد اعتمد على قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾،

ولنتدبر هذه الآية أيضًا، فإن خلاصة ما نقله الطبري والجصاص والرازي في تفسير هذه الآية يتعلق بتعرض بعض المنافقين للمؤمنات بالإيذاء، فأمرهن الله بارتداء الجلباب حتى تعرف الأمة من الحرة. قال الرازي مؤيدًا هذا الرأي: إن ذلك يحتمل معنيين: أولاً، إنهن بهذا اللباس سوف يعرف أنهن من الحرائر الأشراف فلا يؤذين، ثانيا: إن عامة الناس سوف يدركون أنهن لسن من الزانيات؛ لأن المرأة التي تستر وجهها مع أنه ليس بعورة، لا يتوقع أحد منها أن تقع في الزنا. إن هذه الواقعة قد نقلها ابن أبى سبرة عن ابن كعب القرظي، وفيها من الأخطاء التاريخية التالية ما يدل على ضعفها.

أولاً: هذه الرواية موقوفة على ابن كعب القرظي، وهو أحد التابعين، فكان هذا الحديث مرسلاً، إضافة إلى أن ابن أبى سبرة معروف بوضع الأحاديث. إن جميع الحوادث المنقولة في شرح هذه الآية لإثبات تعفف من يسترن وجوههن كلها روايات مرسلة لا علاقة لها بأصل المسألة. وفي الوقع، إن هذه الواقعة لا تتوافق مع الثقافة الإسلامية التي لا يفرق فيها بين السيد والعبد وبين الحرة والأمة إلا بالتقوى والعمل الصالح, وإلا فأي مجتمع إسلامي هذا الذي تصان فيه بنات الأشراف من إيذاء الفساق، فيشرع لهن ستر الوجه، وتترك الإماء عرضة لإيذاء الفجار. إن من فسروا هذه الآية على هذا النحو، إنما يستدلون بهذه الروايات الضعيفة لقصور أدلتهم، كما أنهم ينظرون في الحقيقة نظرة عجيبة إلى المرأة المسلمة غير الحرة, ويمكنكم أن تلحظوا معي هذا العجب فيما ذكره أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن عندما قال: "يجوز لغير المحرم أن يرى من الأمة شعرها, وذراعيها، وساقيها، وصدرها ونحرها"، فليسأله أحد ماذا تبقى بعد هذا؟

إن الإسلام لا يفرق بين المؤمنة الحرة وغير الحرة، بين العبد والسيد, بل ينظر إلى الجميع نظرة متساوية، فمعيار التفاضل في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح. إن الزنا في كل الأحوال زنا، سواء كان من أتاه من الحرائر أم من الإماء، كما أن أي مجتمع طاهر لا يمكن أن يتخذ موقفا مرنًا تجاه هذا الأمر، ثم إنه إن كان لا يزال هناك أحد يرى أن ارتداء الجلباب أو ستر الوجه واجب من أجل تمييز العفيفات، فلا ينبغي عليهم في الحقيقة تعقيد الآيات القرآنية بتأويلات غريبة بعيدة عن متنها الأصلي. إن ما يجب علينا هو أن نأخذ من هذه الآيات ما يستنبط من المتن مباشرة، ويؤيده عمل الصحابيات المؤمنات على عهد النبي ﷺ. إن خلاصة أحكام الحجاب الواردة في هذه الآيات تبين أنه يجب على المؤمنات عند الخروج من البيت أن يرتدين الجلباب، إلا أنه قد أبيح لهن كشف الوجه واليدين حتى يمكنها أن تؤدي جميع واجباتها بسهولة مثل ما كانت عليه في العهد النبوي.

إن من ذهبوا إلى القول بوجوب ستر الوجه وعدم جواز كشفه أو كشف اليدين بحال من الأحوال، إنما يجهلون في الحقيقة أحكام الحجاب. وفي الحقيقة، فهم يرجحون نزعاتهم الشخصية على الأحكام التي حددها القرآن الكريم بشأن الحجاب.

ولو قرأتم جميع الأدلة التي استند إليها هؤلاء العلماء، فسترونهم يأخذون بمبدأ الأحوط في الدين بدلاً من الاستدلال بالكتاب والسنة لتأييد وجهة نظرهم. إنهم بنهجهم هذا ينسون تمامًا أن الله ورسوله أعلم منهم بالأحوط وبما هو أصلح للناس وأفضل، علاوة على أنه إذا كان الله قد أجاز للمرأة المسلمة كشف الوجه واليدين، فمن هم حتى يضيفوا شيئًا على حدود وأحكام الله تحت ذريعة رفع الفتنة.

إن هناك إجماعًا بين جميع المذاهب تقريبًا على أن الوجه ليس من العورة، فالحنفية يرون أنه يجوز للمرأة كشف وجهها ويديها، أما المالكية فيختلفون حول هذه المسألة، حيث ذهب فريق منهم إلى وجوب ستر الوجه واليدين، وذهب فريق آخر إلى جوازه، أما جمهور الشافعية فيرون أن ستر الوجه ليس واجبًا، والحنابلة يفرقون بين الزينة والوجه العادي، كما يفرقون بين المرأة ذات الحسن والجمال، وبين المرأة العادية. وخلاصة القول أنه حتى من ذهب من الفقهاء إلى وجوب ستر الوجه، فإنهم يقرون جميعًا أن وجه المرأة ليس بعورة.

إن الذين لا يزالون مصرين على وجوب ستر الوجه حتى بعد هذا البيان، إنما يستدلون بأن مفاتيح أبواب الفتن هي سفور الوجه، حيث يرون أن الوجه مركزًا للجاذبية الجنسية، كما يحتجون بأن كشف الوجه بعد ستر جميع البدن، إنما يكون مثل القلعة التي أُغلقت جميع أبوابها الصغيرة خوفًا من العدو، وتُرك الباب الرئيسي مفتوحًا. هذا هو أقوى دليل من مجموع الأدلة التي استدل بها الأستاذ أبو الأعلى المودودي على وجوب ستر الوجه. ولكن من يستطيع أن يقول له إن الباب الذي لا يريد الله ورسوله إغلاقه، ليس من حقنا أن نغلقه؛ فنحن مأمورون بالاتباع امتثالاً لقول الله

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

وليس من اختصاصنا أن نضيف شيئًا على حكم من أحكام الله تحت ذريعة درء الفتن. وإذا كان كشف وجه المرأة يغري أحاسيس الرجال المرضى، ويشعر معه أصحاب العقل المريض بوجود خطر على إيمانهم، فما يجب في الواقع هو تربية مثل هؤلاء الرجال تربية أخلاقية دينية، ولكن ليس لنا أن نعتبر انحطاطهم سببًا

لجواز فرض القيود على المرأة المسلمة التي لم يوجبها الشارع عليها، والتي لا نجد لها أثرًا في المجتمع الإسلامي في القرن الأول.

إن الإسلام لا يعترف بذلك المجتمع الذي يقضي على هوية النساء المستقلة، فنظرية ظهور المرأة المسلمة منتقبة الوجه لا تتفق مع مجتمعاتنا. وإذا نظرنا إلى مجتمع القرن الأول الإسلامي، نرى أن نساء المسلمات قد تولين مراكز بارزة في شتى مجالات الحياة, وكن يعرفن بملامح وجوههن. ويمكننا أن نلاحظ أن النساء البارزات اللاتي جاء ذكرهن في كتب التاريخ والحديث كن يعرفن أيضًا بملامح الوجه والجسم, فالمرأة التي نبهت عمر بن الخطاب حول قضية المهور أثناء خطبته، قد وصفها الرواة أنها كانت ذات أنف أفطس، ويروي قيس بن أبى حازم أنه رأى أسماء بنت عميس عند أبى بكر، وكانت امرأة بيضاء موشومة اليدين،[1] كما روى أبو السليل أن ابنة أبي ذر جاءت لزيارة أبيها فدخلت عليه وعنده بعض الناس، وكانت عليها مجنبتا صوف سفعاء الخدين.[2] وعن عمران بن حصين، قال: كنت مع النبي ﷺ جالسًا إذ أقبلت فاطمة عليها السلام فوقفت بين يديه، فنظر إليها وقد غلبت الصفرة على وجهها، وذهب الدم من شدة الجوع، فقال: "ادني يا فاطمة" فدنت، ثم قال: "ادني يا فاطمة" فدنت حتى وقفت بين يديه، فوضع يده على صدرها في موضع القلادة، وفرّج بين أصابعه، ثم قال: "اللهمّ مشبع الجاعة ورافع الوضعة، لا تجع فاطمة بنت محمد" فغلب الدم على وجهها، وذهبت تلك الصفرة.[3] وعن جابر بن قبيصة، قال: كنا ثلاثة نفر بيننا امرأة عجوز من بنى أسد، ذهبنا إلى ابن مسعود، وكان على جبين تلك المرأة وصمات فاستكرهها ابن مسعود. وروى أبو أسماء الرجبي أنه ذهب إلى أبى ذر الغفاري ورأى أن إحدى زوجاته كانت سمراء.[4] ويقول عروة بن عبد الله: دخلت على فاطمة بنت علي ورأيت في يديها مسكتين

---

[1] الطبري
[2] ابن سعد
[3] ابن جرير في التهذيب
[4] أحمد وابن سعد

غليظتين.[1] كل هذه الحوادث وغيرها تدل على أن عادة ستر الوجه واليدين لم تكن موجودة في العهد القريب من العهد النبوي.

ويجب أن تستعيد مسلمة اليوم حريتها الكاملة التي تمتعت بها مع ارتدائها الحجاب كما كان الحال في المجتمع الإسلامي إبان القرن الأول، فليس ثمة ما يمنع من مشاركتها الفاعلة في مختلف مجالات الحياة مع الالتزام بأحكام الله ورسوله. إن المرأة المسلمة ليست مضطرة للجوء إلى أحضان الحضارات الأخرى مع وجود أحكام الحجاب الصالحة لهذا العصر. لقد كان حجاب المسلمات في عصر النبي رمزًا لحريتهن التي منحها الإسلام لهن بعد أن أنقذهن من وهدة الجاهلية, ولكنه أضحى اليوم تعطيلاً لدورهن، ووقفا لمشاركتهن في جميع أنشطة الحياة، وحبسًا لهن في البيوت. إن جلباب القرن الأول كان بادرةً لتشجيع المرأة، أما الجلباب السائد اليوم فهو إعلان بالحجر، وتمس الحاجة اليوم للعودة بجلباب القرن الأول إلى صورته الأصلية؛ فهذا الجلباب يمكن أن يلبي ضرورة كل عصر, أما الحجاب الذي اتخذناه اليوم في شكل برقع ملفوف فلا يواكب أي عهد سوى العهد الإقطاعي.

هدف المجتمع الإسلامي

إن الإسلام يطالب المؤمنين والمؤمنات بالمشاركة الفعالة في إقامة مجتمع صالح، فهو يعطي المرأة الحرية الكاملة مثل الرجل حق المشاركة في تحقيق هذا الهدف المقدس، ومع ذلك لا يتغاضى عن مراعاة الطبيعة البشرية، أي أن الذين يسعون لإقامة مجتمع مثالي آمن وصالح هم أنفسهم عرضة للخطأ من مقتضى بشريتهم. ولإقامة مجتمع صالح، يتحتم أن توضع قواعد أساسية تنظم العلاقات بين الناس، وكيفية التعامل بين الرجل والمرأة، ويجب أن يراعى في وضع هذه القواعد أن لا يُبخس أحد حقه؛ حيث يجب أن تلقى المسئولية على عاتق كل من الرجل والمرأة على حد سواء بطريقةٍ لا تعطي فرصةً أو مجالاً لتدخل الشيطان. لقد ضبط الشارع هذه القواعد فمنع أن يجتمع رجل بامرأة دون أن يكون معهما ثالثًا،[2] كما

[1] ابن سعد
[2] الشيخان

نهى نهيًا شديدًا أن يرى رجل رجلاً آخر عاريًا, أو أن ترى امرأةٌ امرأةً أخرى عارية،[1] كما نهى عن اللباس الذي يلفت الأنظار, قال ﷺ: "لعن الله الكاسيات العاريات"، وأمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج، فقال تعالى في سورة النور:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾

وفرض على المؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن عند خروجهن، وبذلك وضع الشارع التدابير الواقية من تغلب الدوافع الجنسية غير الصحية على الرجل والمرأة في التعاملات الاجتماعية.

إن المجتمع الإسلامي لا يهدف إلى الترويج لحجاب من نوع خاص، كما لا يهدف إلى حبس الرجال والنساء في عالمٍ يكون كلا منهما فيه منعزل عن الآخر, ولكن ما يريده الإسلام هو ضمان الحذر والحيطة في العلاقات بين غير المحارم حتى لا يقع الذين يدعون إلى قيام مجتمع طاهر في دروب التيه نتيجة طبيعتهم البشرية. إن الأحكام الإسلامية لا تهدف إلى حبس النساء داخل البيوت، إنما تهدف إلى قيام مجتمع طاهر خالٍ من الأسباب المثيرة للجنس، وعلى هذا الأساس، منع الشارع المرأة من الذهاب إلى المسجد إذا كان في ذهابها إثارةً للفتن، فلقد نهى النبي ﷺ النساء من الذهاب إلى المسجد متعطرات. أما فيما يتعلق بقضية حركة النساء والعلاقات الاجتماعية بين المؤمنين والمؤمنات، فإن الإسلام لا يعترض على هذا, بل إنه يعتبر المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، قال تعالى:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

إن لقاء موسى عليه السلام بالفتاتين عند بئر مدين يشير إلى أن التحدث مع النساء غير المحارم في الأماكن العامة وتقديم المساعدة لهن ليس مكروهًا عند الله,

---

[1] مسلم

بل قد يؤدي إلى نشأة علاقات طيبة. لقد تم ترغيب الرجال والنساء في تبادل التحية في الأماكن العامة والسؤال عن أحوال بعضهم البعض، ولم يضع الشارع عند تبادل التحية قيدًا على الرجل والمرأة المحرمة أو غير المحرمة، المعروفة أو الغريبة، حيث ذكر الترمذي أن النبي ﷺ دخل على النساء الجالسات في المسجد، وسلم عليهن، وأشار بيده.

إن الإسلام يعني بتربية الأفراد الذهنية والروحية من أجل إقامة مجتمع صالح، يلتزم أفراده تمامًا ببعض المبادئ الأساسية، كما يرغب في مجتمع لا يخلو البتة من مظاهر التقوى مع المشاركة الفاعلة للمرأة فيه. إن الإسلام لا يرضى حلاً وضيعا مزيفًا تقيد فيه النساء وتحجبن خشية الفتن، فالإسلام يدرك جيدًا أن الفتنة أو المثيرات الجنسية تنشأ في كل فرد بدرجات مختلفة، ومن ثم لا يمكن حل القضية بجعل المظهر الخاص باعثًا على الفتنة. ووفقا لهذا، فإن الإسلام بدلاً من أن ينحي المرأة عن المشاركة في الحياة الاجتماعية، فهو يشدد على تربية الرجل والمرأة كليهما، وكانت هذه الروح هي السائدة النشطة في مجتمع العهد النبوي.

مسئولية المرأة في إقامة مجتمع صالح

في عهدٍ انهار فيه النظام الإسلامي، وتفككت فيه مؤسسات الإسلام الاجتماعية والسياسية، واضطرت الأمة بأكملها للعيش في نظام غير إسلامي, إذا أراد أحد في هذه المرحلة من الضعف حبس المسلمات في البيوت تخوفا من الفتنة, فعلينا أن نقيم حدادًا على عقله. أي فتنة أكبر من أن تكون حياتك ملطخة بنجاسات نظام غير إسلامي يجبرك على مخالفة أوامر الله ليلاً ونهارًا، قيامًا وقعودًا، أي فتنة أكبر من أن تكون حياتك خاضعة لأحكام الباطل وأوامره. أبَعْد العيش على هذه الحالة التي تدعو للرثاء، تنظر إلى هذه الحياة على أنها حياة عادية، أنسيت أن منهج الحياة الذي ضمن لك النجاح، إنما هو المنهج الذي جاء به النبي ﷺ. أي فتنة أكبر من أن تعيش حياة غافلة بعيدة عن المنهاج النبوي. هل أصبحت فكرة التضحية في سبيل الله وبذل النفس من أجل غلبة الدين لا تخطر على بالك إلا قليلا، وكأن صورة الإسلام الحقيقية قد اختفت من قلبك وذهنك. إذا كنت تعيش وسط هذه الفتنة الكبرى،

ولا تخاف على إيمانك، فكيف تفقد السيطرة على وعيك عند وجود فتنة صغرى كهذه؟

إن الحاجة تدعونا بدلاً من تضخيم الصغير وتفخيم الحقير أن نستعد لمواجهة تلك الفتنة الكبرى، وإلا فما تبقى من رصيدنا الإيماني سوف يضيع في ظل هذا النظام الفاسد. وإذا كانت النساء في المجتمع المسلم يشعرن بالقلق من داخلهن، فلا يمكن أن يُفسَّر هذا على أنهن – معاذ الله - قد انحرفن عن المنهج القويم لله ورسوله, بل سبب هذا القلق هو ثقافتنا المتصدعة الملوثة التي سلبت منهن الحق في المشاركة البناءة في المجتمع. إن القلق يساورهن نتيجة ما فرضه المجتمع عليهن وعلى أنشطتهن في سبيل الله تحت ذريعة درء الفتنة، إنهن يتألمن من قبول إخوانهن في الدين نظامًا غير إسلامي، كما يتألمن من عدم المشاركة المثمرة في إقامة نظام صالح، وكذلك من عدم مشاركة إخوانهم في سعادة إقامة مثل هذا النظام. وفي ظل المعاناة من الموقف السائد، بدأت بعض الأخوات ينظرن إلى الحركات الغربية التي تحاول نهب كل ما أمكن تحت اسم الحرية نظرة متفائلة. إن الأمر جد خطير، فالمتغيرات الخطيرة تطرق أبوابنا، وعلى الأخوات المسلمات الواعيات أن يعددن لأنفسهن منهج حياة على ضوء الكتاب والسنة، كما آن الأوان ليعاد إليهن الدور الواعي النشط الذي كن يتمتعن به على عهد رسول الله ﷺ.

إمامة المرأة

هل يجوز للمرأة المسلمة أن تؤم صلاة الجمعة لاسيما إذا كان خلفها عدد كبير من الرجال يأتمون بها بالإضافة إلى النساء؟

هذه هي القضية المطروحة الآن على الساحة في العالم الإسلامي، والتي تحظى بقدر كبير من اهتمام دور الإفتاء والشخصيات البارزة من خلال الإدلاء بآرائهم، فالشيخ يوسف القرضاوي أحد أبرز العلماء الذين يحظون بشهرة واسعة في العالم الإسلامي عارض هذه المسألة بشدة معتبرًا إياها انحرافًا عن المنهج الإسلامي القويم. وعلى الجانب الآخر، لم يرفض شيخ الأزهر وعدد من العلماء إمامة المرأة مطلقا، لكنهم يرون أنها تجب أن تكون قاصرة على النساء فقط. أما علماء السلف في المملكة العربية السعودية والهند فقد ذهبوا إلى القول بأن هذا عملاً آثماً؛ كما أثار حفيظتهم أن يقوم هؤلاء النساء في الوقت الذي تتعرض فيها الأمة الإسلامية لحملات شرسة من الخارج، بإثارة هذه الفتن في الداخل، وما هي بغيتهم من وراء إثارة هذه القضايا في هذا المنعطف الخطير؟ إن الخشية كلها أن يكون المستفيد في النهاية من مثل هذه التحركات غير المحسوبة هم أعداء الإسلام، وأن يؤدي ذلك إلى خلق حالة من الفوضى والاضطراب داخل المجتمع المسلم.

إن ما يعوزنا حقيقةً هو بحث هذه المسألة في هدوء بعيدًا عن السخط والغضب، وهذا هو ما يقتضيه العقل وما يحثنا عليه القرآن الكريم، إذ يأمرنا بلزوم حد الاعتدال والتفكر الناضج مهما كانت الدواعي.

من هم أهل الإمامة في الإسلام؟

إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الناحية الفقهية، ودرسنا الشروط التي يجب توافرها في الإمام، يجب أن نضع في الاعتبار الضوابط التي وضعها الفقهاء في من يحق له إمامة المسلمين، وهي كالتالي: الأكثر تقوى، والأكثر رسوخًا وبصيرةً

في فهم الدين، والأقرأ للقرآن. وهنا نجد أن مسألة النوع لم تشغل بال الفقهاء، ولم يتطرقوا إلى الحديث عن كون من أوتي هذه الصفات رجلاً أو امرأة؛ وذلك لأن القرآن الكريم لا يقيم وزناً للعرق أو الجنس؛ كما أن المنهج القرآني لا ينظر إلى الأنوثة باعتبارها نقيصة أو سببا لعدم الأهلية على المستوى الاجتماعي أو الديني، وهذا هو المنظور القرآني المتعلق بإمامة المرأة. أما كيفية بحث الفقهاء في هذه المسألة، فلا شك أن التاريخ مفعم بالمسائل التي اتجه فيها الفقهاء إلى تحريم المباح سداً للذرائع، فلو أخذنا على سبيل المثال مسألة دخول النساء إلى المساجد، نجد أن التاريخ الإسلامي، وعمل الأمة المتوارثين عبر العصور يشهدان على أن المسجد، وهو أول مؤسسة اجتماعية في الإسلام التزم بمشاركة النساء منذ عهد النبي ﷺ، وهذه المشاركة مستمرة حتى الآن في الحرم المكي والمسجد النبوي رغم أن بعض الحكام والعلماء قد حاولوا في الماضي منع الطواف المختلط، لكن محاولاتهم هذه قد باءت بالفشل، وتسجل كتب التاريخ اعتراض محدثٍ جليلٍ مثل عطاء على هذه المحاولات. وإذا ذهبنا بعيدًا عن الأراضي المقدسة في الحجاز، وحيث سيطرة التأثيرات المحلية على فهم الفقهاء نجد أن الفقهاء قد قوضوا دور المرأة الاجتماعي اعتقاداً منهم بأن الحرية المتزايدة للمرأة، وغدوها ورواحها دون تقيد إلى المسجد، قد يوقع المجتمع المسلم المتداعي سلفًا في مزيد من الفتن والابتلاءات، مع أنه إذا انهارت الحالة الأخلاقية للرجل المسلم وأصبحت في حالة يرثى لها، كان من المنطقي أن نحاول تقويمها وتهذيبها لكن الذي حدث كان عكس ذلك، حيث عوقبت النساء بإجبارهن على الخروج من موقع مركزي مثل المسجد.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، ففي عصر الانحطاط الرهيب حيث ساد مناخ من الكآبة واليأس، اعتُبر أنه من أجل العودة إلى الدين القويم، لابد للنساء المسلمات من ارتداء حجاب إضافي فوق ما توجبه عليهم أحكام الحجاب القرآنية. وعلى هذا الأساس، اعتبر العلماء أن كشف الوجه والكفين، وهو ما كان مباحًا منذ القرن الأول، وما تقوم عليه أدلة كثيرة من كتب التاريخ والحديث، أمرًا غير مباح. ورغم أن مسألة كشف الوجه موضع خلاف بين الفقهاء حتى اليوم، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الاتجاه العام في المجتمع بأن ستر الوجه يعد من باب الأخذ

بالحيطة في الدين، قد أدى إلى اعتقاد عدد كبير من المسلمين اليوم خطئًا أن ستر الوجه هو المنهج القويم للدين، وهنا أيضًا يسود نفس الاتجاه الذي يرى أنه مع ترك الوجه مكشوفًا حتى بعد ستر جميع البدن، لن يمكن سد باب الفتنة في المجتمع المشرف على الهاوية. فضلاً عن ذلك، ساد تصور عام في بعض الأوساط أن استماع الرجال من غير المحارم إلى صوت المرأة حرام، وفي بعض المجتمعات الإسلامية، ما زال يعتبر الكشف عن أسماء النساء أو التعرف عليهن مخالفًا للقيم الإسلامية. إن النساء المسلمات هن أكثر من عانين من فلسفة الأخذ بالحيطة التي كان من نتيجة إعمالها لقرون طويلة أن أصبحت المرأة دون وجه، ودون اسم، ودون صوت؛ فاضطرت للتخلي عن أداء دورها الاجتماعي والديني كامرأةٍ مسلمة. ومن ناحية أخرى، نجد أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم وضع حد لتدهور المجتمع الإسلامي، قد كرسوا جل جهدهم في كيفية التحكم في المرأة المسلمة، بينما اختفت عملية إصلاح الرجال من برامج أعمالهم. إن الذين يرفضون قيادة المرأة الاجتماعية والسياسية والدينية في هذا العصر لمجرد أن ذلك سوف يكون أمرًا باعثًا على الفتن داخل المجتمع، نراهم في الحقيقة يسلكون مسلك القدامى، وهو ماعجّل بانحطاط المجتمع.

إن الإسلام هو الخضوع والاستسلام، وهو مطلوب بنفس الدرجة من الرجال كما هو مطلوب من النساء ويجب أن لا يكون لدينا أدنى تحفظ من التسليم بأن الله ورسوله أعلم بما يمكن أن يكون باعثًا على الفتنة في المجتمع، وأعلم بالعمل الذي يساعد على توازن المجتمع واستقراره. وإذا كان الله ﷻ قد أعطى المرأة المسلمة حق المشاركة في الحياة الاجتماعية والدينية من المسجد، وإذا كان الرسول ﷺ قد منحها حق العمل في عهده، فلا يحق لنا أن نسلبها هذا الحق بعد هذه القرون، بناءً على فهمنا القاصر للدين. إن الدارس البسيط لتاريخ الإسلام يعرف أن مشاركة النساء على عهد النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية، ومعرفة أسماءهن ووجوههن، ومشاركتهن في التجارة والحرف، كان أمرًا عاديًا. وفي عهد الخلافة الراشدة، كان يطلب منهن المشورة في الأمور السياسية، حتى أن امرأة ذات أنف أفطس رأت أنه من واجبها أن تنبه ولي الأمر الخليفة عمر على الملأ، وراجعته في خطأ وقع فيه

أثناء خطبته. إننا إذا تصورنا هذا المناخ السائد في عصر صدر الإسلام، فإن إمامة امرأة مسلمة لصلاة الجمعة في القرن الحادي والعشرين لا تبدو حدثًا مذهلاً. وقد ذكر الدكتور محمد حميد الله في خطبته بـ "هاول بور" حادثتين لإمامة المرأة في عصر صدر الإسلام، وحتى لو كانت هذه الحوادث التاريخية لم ترد في الكتب، فلن نواجه صعوبة في فهم أن الجوهر الأساسي للتقوى الذي جعله الإسلام شرطًا للقبول في حضرة الله ﷻ، والذي يعد جوهر الامتياز لكل من الرجل والمرأة على حد سواء، لا يترك مجالاً أمام أحد لأن يفخر بانتمائه إلى عرق، أو مكان، أو لون، أو جنس معين. إن القرآن الكريم قد صرح بأنه لا يمكن أن يضيع أو يُبخس عمل أحد لمجرد أنه ينتمي إلى طائفة، أو جنس معين، فالآية القرآنية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

تعطي ضمانًا لكل شخص بأن عمله الصالح لا يمكن أن يذهب هباءً منبثًا، كذلك فإن الآية الكريمة

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

تؤكد أن كل شخص سوف يجازى على عمله، وكذلك الآية

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

تؤكد أن المرء سوف يحاسب على ما قدمت يداه، وأن كل الهويات لا قيمة لها، علاوة على أنه حينما يكون التواصي باختيار صبغة الله للجميع رجالاً ونساءً، فكيف يمكن لرجل أن يدعي أفضليته على امرأة أفضل منه في التقوى والعمل الصالح لمجرد أنه رجل. لقد توعد القرآن بالهلاك رجلاً صاحب ملك عظيم مثل فرعون، ورجلاً كان يفتخر بجبروته وقوته مثل أبى لهب، وعلى الجانب الآخر،بشر قوم سبأ بالنجاة تحت قيادة ملكتهم المحبة للحق. وبعبارة أخرى، أعلن القرآن أن كل الاختلافات في الجنس، واللون، والعرق، والوطن التي ورثها الإنسان بالميلاد هي اختلافات لا قيمة لها، وفصل القول بأن الشيء الوحيد الجدير بثناء الله ﷻ هو العمل

الصالح؛ وبأن مكانة المرء في المجتمع الإسلامي إنما تتحدد وفقا لذلك، بل لقد ذهب القرآن إلى حد التصريح بأن الصالحين من الأمم الأخرى يجب معاملتهم باحترام؛ وبأن أعمالهم الصالحة لن تضيع هباءً منبثًا. إننا أتباع الكتاب الذي صرحت آياته في أكثر من موضع بأن كل الفوارق غير الفطرية من اللون والعرق، والجنس والمكان، والشمال والجنوب، والعرب والعجم قد تم استئصالها، وأن ما ينفع المرء يوم الحساب، عندما يفرق الله ﷻ بين الحق والباطل، هو العمل الصالح، وقبل هذا اليوم، كيف يجرؤ إنسان يخاف الله ويتقيه أن يصف إنسانًا بأنه من العصاة، أو بأنه من أهل النار، مع أن الله ﷻ قد حفظ الحكم في هذه الأمور لذلك اليوم، فقال الله تعالي:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ ﴾.

لقد قطعت المرأة شوطًا كبيرًا بدايةً من مرحلة قهرها

﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ ﴾

إلى مرحلة القيادة الدينية والسياسية. إن حركة تكريم الإنسانية التي ظهرت على يد محمد ﷺ كان لها آثارًا بعيدة المدى في شتى أنحاء العالم، فالأمة الإسلامية ليست هي الأمة الوحيدة التي استفادت من فيض هذه الحركة النبوية، بل لقد نال منها نصيبًا وافرًا أيضًا أناس آخرون مستضعفون في المجتمع من أصحاب الديانات الأخرى، فتنفست الصعداء تلك الأسر التي رزحت تحت وطأة المعاملات الربوية جيـلا بعد جيل ورويدًا رويدًا، اختفى الرق من على وجه الأرض كما اندثرت عادة الجاهلية المتعلقة باستعباد الرجل للمرأة. إن رسالة القرآن الإصلاحية التي تؤكد

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾

قد بعثت الشعور بأن الرجل والمرأة متساويان تمامًا في قيادة المجتمع الإنساني على طريق الإذعان والخضوع لرب العالمين.

إن أسس الإصلاح التي تم وضعها على عهد النبي ﷺ لم تجن كل ثمارها على الفور في حياة النبي ﷺ، لأنه لو حدث ذلك، فماذا يبقى إذًا للتاريخ القادم، وماذا يبقى

من مغزى خاتم الرسل ﷺ؟ إن من يعتقدون أن الثمار التي لم تجن في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن تجنى في المستقبل، أو من يصرون على أن الأمر الذي لم يحدث في عهد النبي ﷺ يعد حدوثه في المستقبل من علامات الساعة، لا يدركون في الحقيقة مغزى خاتم الرسل، ولا يفهمون جوهر الطبيعة الأبدية للقرآن، وإن لم يكن الأمر كذلك، فماذا تكون إجابتهم حول آداب المعاملة الحسنة مع العبيد التي حث عليها القرآن، والتي لا يمكن تطبيقها في هذا العصر لأن مؤسسة الرق القديمة لم يعد لها وجود، وكيف يمكن لنا إنكار هذه الحقيقة الواضحة، بأنه نتيجةً لترغيب القرآن في معاملة العبيد معاملة حسنة، والحض على تحريرهم من الاسترقاق، كانت نهاية هذه المؤسسة يومًا ما أمرا حتميًا. وبعبارة أخرى، كان هذا الترغيب وكانت هذه الأحكام بدايةً لانقلاب اجتماعي عظيم وليست نهايةً له كما أن أثر هذه الأحكام لم يُر إلا فيما تلا ذلك من قرون، وعلى نحو مماثل، لا أحد يستطيع أن يتوصل بعد قراءة أحكام الزكاة في القرآن أن القرآن يريد أن يخلد الفقر، فيبقي على طائفة من الفقراء يؤدي الأغنياء إليهم واجباتهم الدينية وقريب من هذا رحلة المرأة التنموية في المجتمع الإسلامي، ففي عهد النبي ﷺ كان النظر إلى المرأة على أنها مساوية تمامًا للرجل، كما خُوِّل إليها القيام بأدوار اجتماعية، فكانت النتيجة الحتمية في السنوات التالية أن قامت النساء بالمطالبة بمكانة كريمة لهن في المجتمع تقوم على أساس العلم والتقوى. إن الأساس الذي وضعه الإسلام لتشجيع وتدعيم مكانة المرأة قد امتدت انعكاساته القوية خارج المجتمع الإسلامي، فحركات تحرير المرأة في الغرب، ومشاركتها في العمل الاجتماعي والسياسي، وحقها في التصويت، وضمان الحرية الشخصية، كل هذا لم يأت فجأة من فراغ ولكن كانت وراءه حركة الإصلاح النبوية التي وصلت الغرب نتيجة التبادل الثقافي الممتد عبر القرون لكن بالطبع وقع الغرب ضحيةً الإفراط في استخدام الحرية الشخصية نتيجة عدم الاكتراث بالوحي.

إن المجتمع الإنساني في حالة تطور دائم، فحركة تكريم الإنسانية التي بدأها النبي ﷺ في مكة لم تتوقف أبدًا. وفي مسار تاريخ الإنسانية، نجد ما يدل على جهل أولئك الذين لا يتعدى نظرهم الميثاق الأعظم الذي أصدره الملك جون عام 1215م، أو الذين يعتقدون أن التاريخ البشري كان راكدًا قبل الإعلان العالمي لحقوق

الإنسان، فكل الاهتمامات الموجهة اليوم للحفاظ على حقوق الإنسان وكرامته، سواءً كانت حول إنقاذ العالم من الدمار النووي، أم حماية البيئة، أم الاهتمامات الموجهة ليس فقط نحو الحفاظ على الجنس البشري من الانقراض بل وكذلك الحفاظ على بعض فصائل الحيوانات والكائنات الأخرى، أم الحفاظ على الهواء من التلوث أم محاولات الحفاظ على درجة حرارة المحيطات، فكل هذه الأشياء في الحقيقة تتصل خيوطها بالحركة النبوية. وإذا كانت المرأة تشعر اليوم بتهميشها في المجتمع المسلم ذي السلطة الأبوية، فإن محاولتها استعادة مكانتها الطبيعية من خلال استجماع الشجاعة الكافية للمطالبة بحقها في الإمامة مثلاً، لا يمكن اعتباره فكرًا غريبًا منفصلاً عن ذلك الامتداد التاريخي. إن ما نحتاج إليه الآن بدلاً من النظر إلى تراثنا الثقافي نظرة الغرباء، أن ننظر إلى القضية من منظور أوسع، فأي عمل إنساني حتى ولو كان مما حث عليه القرآن في قوله تعالى:

﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾

هو عرضة للإفراط والتفريط في كل لحظة، وسوف يكون من العبث تركه بلا إصلاح. أما إذا رفضنا هذه المحاولات قائلين إنها مؤامرة دبرها أعداء الإسلام، أو عمل مردود على فئة ضالة من المسلمين فلن نصل إلى فهم صحيح للقضية، كما لن يبق هناك مكان للإصلاح المنشود.

ولا ريب أن الإسلام على مدار أربعة عشر قرنًا لم يشهد فيما ماعدا بعض الحوادث التاريخية الإستثنائية عادة دائمةً لقبول المرأة كإمام أو كخطيب على المنبر، ومع ذلك لا يمكن إنكار أن الرجال المسلمين لم يتكلفوا في قبول المرأة كفقيهة، أو مدبرة، أو معلمة. وإذا وضعنا أمامنا مبدأ أن ثمار الحركة الإسلامية لم تظهر جميعها في عهد النبي ﷺ، وأن بعض هذه الثمار قد ظهرت فيما تلا ذلك من سنوات، وأن حلم إقامة مجتمع عالمي يقوم على تعاليم النبي ﷺ لا يزال قائما، وأن هذا بعينه هو جواز بقاء مغزى خاتم الرسل ومتبعيه، فسوف تحدث طفرة هائلة في طريقة تفكيرنا، وسوف نشعر بضرورة الحكم على قضية إمامة المرأة من خلال المنظور القرآني بدلاً من النظر إليها على أنها فتنة أو علامة من علامات قرب

الساعة. إن من يعتبرون هذا الحدث هدمًا للدين نراهم من وجهة نظرنا لا يجدون في أنفسهم العزيمة للحكم عليه من خلال المنظور القرآني، أو هم لا يشعرون بضرورة ذلك، فتفسيرات الأقدمين وفتاويهم تمثل لهم القول الفصل في كل شيء إلى القدر الذي يعتبرون معه أن أي مناقشة حول هذه الفتاوى تعتبر فتنة، مع أن هذا المبدأ لا يجد ما يؤيده، لأن دين مستقبلي كالإسلام يأخذ على عاتقه قيادة البشرية إلى قيام الساعة لا يصح أن يخضع لتفسيرات الأقدمين، وفي حالة قيامنا بذلك، سوف نعطل من مهمة الوحي ومقاصده. ومن سوء الحظ أن سادت في المجتمع الإسلامي عبر القرون عادة النظر إلى القرآن الكريم على أنه كتاب بركات بدلا من التدبر والتفكر فيه، كما أننا لسنا على استعداد للتسليم بأن أسلافنا كانوا بشرًا مثلنا؛ فهم عرضة للخطأ حال شرح وتفسير الوحي واستنباط الحكم، وحال اجتهادهم لتعيين المصالح والجمع والتوفيق بين الروايات المتعارضة ونحن لسنا مكلفين بأن نحمل التباسهم الفكري على أكتافنا الضعيفة، فهل أخطاؤنا الفكرية والعملية قليلة حتى نعتبر حمل وزر أخطاء القدامى ضروريًا؟ إن ما نحتاج إليه بدلاً من الإعراب عن الغيظ والحنق من هذه القضية الخطيرة والحساسة في قالب فقهي قديم أن نحكم عليها في ضوء رحلة تطور الحركة النبوية الممتدة عبر أربعة عشر قرنًا. ويجب على المجتهدين المحدثين بقدر شكهم في النظام الفقهي القديم والتأثيرات الاجتماعية والسياسية عليه أن يحترزوا في الحكم على هذه القضية قدر الإمكان من الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والفكرية الحالية.

يجب ألا تخدعنا التقاليد باسم الإسلام

خطبة قائد الملة الدكتور/ راشد شاز التي ألقاها في مدرسة دينية للنساء
بجامعة علوم النسوة في بنجلور بمناسبة حفلة توزيع الشهادات

أمهات الأمة, أخواتنا، وبناتنا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هذه ليست المرة الأولى التي أجد فيها فرصة المجيء إلى مدرسةٍ دينية, إلا أن ما أدخل السرور إلى قلبي اليوم هي أمانيكم جميعًا بتمكين هذا الدين المبين. لقد رأيت لمحةً من هذه الأماني في مسابقة الرسم، وفي الحقيقة أنكم قد وضعتموني في

خيار صعب باختياركم لي للتحكيم في هذه المسابقة. ومع أنني لست على دراية كاملة لهذا المجال, إلا أنني من الناحية الفكرية قد أعجبني ذلك الرسم الذي عبر فيه طالبٌ في السادسة أو السابعة من عمره عن أمنيته في غلبة الإسلام، ندعو الله أن يحقق حلمنا هذا في أقرب وقت.

هذا، وقد تعمق هذا الشعور لدي إثر سماعي للخطب التي ألقتها البنات في الجلسة التي عقدت عصرًا، وبذلك نحسب أن مدرستكم ليست مدرسة تقليدية، وأن أساتذتكم يُهيئنكن لإحداث تغيير إسلامي عظيم في المستقبل. إنني من مقامي هذا أوجه التحية لأساتذتكم على استعدادهم القيام بمثل هذا العمل العظيم في مؤسسة صغيرة كهذه. الطلبة والطالبات، في هذه اللحظة التي تُقبلون فيها على الحياة العملية بعد الحصول على شهادتكم, أود أن أوجه إليكم بعض النصائح، حيث إن ما قمتم بدراسته وما تعلمتموه من بذل التضحية بكل ما لديكم لغلبة الإسلام، وما أراه من رغبة بعض الطالبات منكم في إيقاظ صحوةٍ إسلاميةٍ في النساء المسلمات، يجعلني أقول لكم إن خوض غمار الحياة العملية وتطبيق ذلك ليس من السهولة بمكان. إن مجتمعكم المسلم قد لا ينظر إلى روحكم الإيمانية هذه نظرة استحسان، بل قد يغضب عليكن ويسألكن عما دفعكن إلى رفع شعار غلبة الإسلام بعد خروجكن عن أسوار المطبخ؟ بل إنك يمكن أن ترى بعض أفراد عائلتك ممن تتوقعين منهم المساعدة يقولون لك: أي بنيتي! كلامك كله صحيح، لكن تحركك في المجتمع لا يُنظر إليه نظرة احترام؛ لذلك يجب أن تؤجلي برنامج العمل هذا فورًا. وانطلاقا من هذا الموقف، أريد منك أيتها الأخت الكريمة أن تكوني على أهبة الاستعداد لمثل هذه المواجهة، وألا تدَعى مثل هذا الموقف يخلق فيكِ نوعًا من سوء الظن أو اليأس، ولتعلمي أيضًا أن المسئولية التي تقع على عاتقك هي الدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته الإصلاحية. أما النظريات الدينية المعاصرة في المجتمع الإسلامي، أو القيود الاجتماعية والتقاليد والعادات إنما تُحتَرم فقط عندما تتفق مع رسالة الإسلام. أيتها الأخت الكريمة: لو جال بخاطرك أن الأمور التي منحها المجتمع المسلم درجة من القدسية بسبب العوامل التاريخية والاجتماعية هي أصل من أصول الإسلام، فاعلمي أنك في هذه الحالة ستكونين مبلغةً للثقافة الإسلامية الهندية فقط.

وكي تكوني على بينة من الأمر، يجب أن تعي أن الطريقة التي نمارسها – نحن المسلمين- في التعامل مع الإسلام، ينظر إليها غير المسلمين على أن هذا هو عين الإسلام؛ لذلك فإن كثيرًا من أساليبنا الخاطئة تشوه صورة الإسلام وتقدم للناس صورة سيئة عنه. وإذا ما أخذنا على سبيل المثال تلك النظريات التي سادت في مجتمعنا بشأن المرأة, نجد أن كثيرًا من الناس يعتقدون خطئًا أن هذه النظريات هي عين الإسلام؛ لذلك يجب عليكن الاجتهاد في حياتكن العملية وتبني الإسلام الصحيح فقط منهجًا لكن، والبعد عن التقاليد سواءً كانت هذه التقاليد مجرد تقاليد للمجتمع المسلم أم كانت تقاليد حظيت لسبب أو لآخر بدرجة من التقديس.

إن البلد الذي نعيش فيه قد رفض شخصية المرأة منذ قرون طويلة، فمنزلة المرأة المتدنية في المجتمع الهندوسي لا تعدو أن تكون تابعة للرجل وخاضعة له، مع أن نظرية المرأة الحرة ذات الشخصية والهوية المستقلة يندر وجودها في دين غير الإسلام، إلا أن ما حدث في المجتمع المسلم الهندي هو انتشار النظريات غير الإسلامية الخاصة بالمرأة رويدًا رويدًا، والتي أدت إلى القول بأن مواهب المرأة تظهر في صورة جيدةٍ في المطبخ، أو أنها تؤدي أعمال البيت المختلفة على أكمل وجه. أما عن كون المرأة تتمتع بشخصية عاقلة مثل الرجل، وعن حقها في الإدلاء بدلوها في الأمور الدينية، فمثل هذه الأمور طفقت تختفي من الذاكرة الجماعية للمجتمع المسلم حتى وصل الحال بالعائلات الدينية التقليدية أن سخرت جميع الوسائل لتعليم الرجل، ونظرت إلى المرأة على أنها ليست مكلفة حتى بالتعليم الابتدائي. وعندما كانت هذه المسألة تثار في الدوائر الدينية، كانوا يرون أن كل ما يجب على المرأة هو أن تتعلم في البيت، وأن تعرف شيئًا من اللغة الأردية، وأن تقرأ القرآن الكريم بالنظر فقط، بل لقد ذهب عالم شهير في شبه القارة الهندية مثل مولانا أشرف علي التهانوي إلى القول بأن المرأة إن حصّلت العلم على يد أساتذة يعلمن مجانا فهذا حسن؛ لأن البركة إنما تحصل في العلم بهذه الطريقة، أما إن تحظى المرأة أيضًا بنصيب من التعليم العالي مثل الرجل، فطبقتنا الدينية المتنورة لا ترتضي ذلك أيضًا، حتى أن سرسيد الذي يُعتبر رائد الحركة التعليمية، والذي قاد – رغم كل المعارضة التي واجها- حركة قويةً من أجل التعليم الحديث للرجال، لم

يعترف بحق المرأة في التعليم مثل الرجل. لقد أعلن سرسيد صراحةً أنه لا يريد أن تدرك المرأة حقوقها الإسلامية بالتعليم، حيث جاء في كلماته "إن المرأة الأمية لا تعرف حقوقها فتعيش عيشةً مطمئنة، أما إذا تعلمت وعرفت حقوقها فسوف تتحول حياتها إلى جحيم".

إذا كان أصحابنا من أرباب الفكر مثل هؤلاء يعارضون تعليم المرأة خوف أن تدرك حقوقها التي منحها الإسلام إياها، فكيف بمن لا علم له بالدين الإسلامي، ومن يعتبرون سلوك كل متنكر في لباس عالم دينٍ رمزًا للإسلام، إذ كيف لا يتولد لديهم اعتقادات خاطئة عن مكانة المرأة في الإسلام. إن حرمان المرأة من التعليم يتناقض تمامًا مع قول النبي ﷺ "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة".

إن المجتمع المسلم الهندي يريد أن تظل المرأة بعيدة عن إدراك مكانتها الحقيقية، وأن تبقى على غير وعي بالمسئولية الملقاة على عاتقها في قيادة المجتمع على الطريق القويم. لقد وصل الأمر في وقت من الأوقات أن كُتبت المقالات تعارض تعلم المرأة الكتابة، ومما يدعو للدهشة هو وجود محاولات لتدعيم هذا الموقف من الناحية الإسلامية والتشريعية. لقد قبلنا مثل هذه النظريات التي لا علاقة لها بالإسلام من قريب أو من بعيد بدعوى أنها تحقق مصالح الأمة وتسد باب الفتن المزعومة, وعلى هذا الأساس قامت سلسلة من التأويلات، فقدت أمامها آيات الله البينات والسنة النبوية أهميتهما، وتناسى الجميع أن الحقوق التي أعطاها الله ورسوله للمرأة، لا يجوز لأحد أن يزيد عليها أو ينقص منها. وقد تبدو بعض هذه الحقوق مخالفة للمصالح الاجتماعية, لكن القرآن يأمرنا

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

وعندما يُنظر للمرأة على أنها لا تستحق أن تحظى بنصيبٍ من التعليم العالي، أو على أنها كائن يجب أن يعيش في عالمٍ منفردٍ داخل أسوار البيت لا يعرف شيئا عما يحدث في الخارج، وأن رأيها في أمور الحياة عديم النفع، كان من الطبيعي أن ينشأ كائن بلا عقلٍ أو فهمٍ يجهل مصالح الأمة ويجهل أنها خير أمة أخرجت للناس, وفي ظل هذه الأجواء لا يمكن للأجيال القادمة أن تعي مقاصد الحياة, وعلينا أن

ندرك أن مثل هؤلاء الأمهات اللائي ينقصهن الوعي سيكون لهن دورًا كبيرًا في انحطاط هذه الأمة.

ومن سوء حظنا أن نظر الناس إلى علامات التفوق الكاذبة السائدة في المجتمع الإقطاعي المتداعي على أنها عين الإسلام, ولأن ذلك المجتمع كان ينظر إلى المرأة على أنها كائن لا يعرف شيئا عن العالم الخارجي، ولا يعرف العالم الخارجي عنها شيئا، حُجبت شخصيتها بحجب غليظة، حتى أصبح معرفة اسمها، أو سماع صوتها، أو معرفة أفكارها عيبًا. وفي هذه المنظومة التي كان فيها العالم الخارجي كلية في أيدي الرجل، كان المطلوب من المرأة أن تؤيد الرجل في كل أقواله حتى لو كانت خطأ، حيث كان يكفي لصحة قوله أنه رجل. إن الدرس الذي علمه لنا صفوة مشايخنا تحت اسم "طاعة الزوجة" قد اختفى عنه التمييز بين الخطأ والصحيح، والحق والباطل, حيث لم يُسمح للمرأة أن تقيّم أوامر الرجل في ضوء الكتاب والسنة، وأن تحتج على ما يعارض الكتاب والسنة ولو بصوت منخفض, وكان المطلوب من الزوجة فقط تنفيذ أوامر الزوج دون نقاش. ومع أن هذا الموقف ليس له أي علاقة بالإسلام، إلا أن درس الطاعة الذي تم تقديمه باسم الدين تسبب في خلق اتجاهٍ عام يرى أن الإسلام يطالب بمثل هذا الكائن المطيع. وإذا نظرنا إلى مولانا أشرف على التهانوي، وهو من له أثر عميق على الفكر الإسلامي في عصرنا، وأخذنا كتابه المعروف "حلى الجنة"، وهو كتاب قد حظي بقبول عام بين النساء، حتى أن النساء المسلمات المحافظات يعتبرنه المرجع الإسلامي الثاني بعد القرآن الكريم, نجد أنه يطالب المرأة بتقديم فروض الطاعة للزوج دون جدال، حيث يقول في كتابه "حلى الجنة": "إن المرأة يجب أن تطيع أوامر الزوج دون نقاش، حتى ولو أمرها الزوج أن تحمل حجرا من أحد الجبال إلى جبل ثان، ومن ثان إلى ثالث، يجب عليها أن تطيعه"، بل إنه كتب أيضًا: "إذا كان الوقت نهارًا وقال الزوج لزوجته إن الوقت الآن وقت ليلٍ يجب عليها أن تصدقه". إن المجتمع الذي يعتبر الطاعة المطلقة أصل من أصول الإسلام، لا يمكن أن تنشأ فيه امرأة صالحة، بل إن التمييز بين الصواب والخطأ لا يمكن أن يتم فيه.

أخواتي العزيزات! تذكرن بأن لكلٍ من المرأة والرجل شخصية مستقلة في الإسلام، وأن كل واحد منهما سيحاسبه الله تعالى عما قدمت يداه, ولن ينفعك القول يوم القيامة بأن زوجك, أو أخاك، أو أباك، كان قد أمرك بالمعصية، حيث إنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وعليك أيتها الأخت الكريمة أن تعلمي أنه إذا كان في بيتك رجال قد اعتادوا ارتكاب المعاصي، وانقطعت الصلة بينهم وبين الحركة الإسلامية، فإن ذلك لا يعطي لك الحق في أن تعيشي أيضًا حياة المعصية, كلا, فلهم أعمالهم ولكن أعمالكن، ولتعلمي أن مسؤوليتك تتضاعف في هذه الحالة، وأن عليك أن تستقيمي على المنهج القويم للإسلام، وأن تبذلي قصارى جهدك في دعوة رجال بيتك إلى صراط الله المستقيم، وهذا هو الموقف الإسلامي الصحيح. أيتها الأخت الكريمة، إذا كان زوجك قد وقع في شرَك المعصية، أو إذا كانت معصية الله ورسوله مستمرة في بيتك، فلا ينبغي لك أن تقفي صابرةً على هذا الحال كما يحدث في البيوت التقليدية التي يُتوقع من المرأة فيها أن ترضى برضا الزوج بدلاً من الاحتجاج على مثل هذه الحالة. ومما يدعو للأسف أن رأينا الكتب الدينية التقليدية تؤكد هذا الاتجاه وتزكيه كما جاء في "حلى الجنة" وكتب أخرى من هذا القبيل. وقد كتب مولانا التهانوي أن على المرأة أن تنصح زوجها إذا علمت أنه على علاقة بامرأة أخرى، وإذا لم يمتنع فعليها أن تصبر. وذكر في هذا السياق قصة لسيدة من لكناؤ، كان زوجها على علاقة آثمة بامرأة عاهرة, ولم يكن يكتفي بعلاقته مع تلك المرأة علنًا، بل كان يأمر زوجته أن تعد لها الطعام، وقد غضبت هذه الزوجة في بادئ الأمر، ثم أصبحت برضاها معاونًا لزوجها في علاقته الآثمة. ويضيف مولانا تهانوي إن تلك الزوجة قد ذاع صيتها في المدينة، ولا يزال اسمها يلمع وسط الناس نتيجة خدمتها لزوجها. هذه صورة لامرأة مسلمة صالحة، لكنها في رأينا لا تتطابق مع الصورة الحقيقية للإسلام. وقول النبي ﷺ في هذا الأمر صريح، حيث قال "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

إن المجتمع الطاهر الذي يريده الإسلام، لا بد أن يقوم كل فرد فيه بنصح غيره بالخير من باب وتعاونوا على البر والتقوى، بل إن الصغير يمكنه أن ينبه الكبير على أخطائه بأسلوب لطيف, فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مختصًا

بالأطفال والشيوخ, أو الرجل والمرأة. أيتها الأخت الفاضلة، إذا كان زوجك قد ضل الطريق لسبب من الأسباب، فعليك أن تحاولي إعادته إلى صراط الله المستقيم، حتى لا تخسرا آخرتكما بالاستقامة على الوفاء التقليدي.

بنات الأمة! بعد الحصول على شهادات التخرج، والخطى نحو الحياة العملية سوف تصادفن باستمرار النظريات السائدة في المجتمع المسلم عن المرأة، وكثيرًا ما سوف تشعرن بأن الأمور التي أباحها الإسلام لكُن، لم يكن ليسمح بها المجتمع المسلم. لقد حدث في عام 1991 أثناء حرب الخليج، أن قامت حوالي أربعين أو خمسين سيدة في الرياض بالخروج وهن يقدن السيارات, وكان هذا يعني أنهن يطالبن بالسماح لهن بقيادة السيارة مع الالتزام بأحكام الحجاب، ونزل الحدث كالصاعقة على المجتمع السعودي التقليدي، فتم عقد المجالس الاستشارية, وتشاور العلماء فيما بينهم في كيفية حل هذه الأزمة, وقد كنت موجودًا في مجلس من هذه المجالس، حيث كانت تجرى المناقشات الساخنة حول هذا الموضوع, وتحدثت قائلاً: إن المرأة السعودية عادةً ما تكون مضطرة للخروج مع سائق أجنبي لقضاء حاجاتها الضرورية, حيث يكون الزوج مشغولاً في عمله، وفي هذه الحالة إذا تم السماح لهن بقيادة السيارة بأنفسهن، نكون قد تجنبنا وجود سائقٍ غير محرم معها، وهذه الصورة أقرب إلى الشريعة من الصورة الأولى. وقد أجاب العلماء قائلين: إن كلامك صحيح، لكنك إن سلمتها مفاتيح السيارة مرة واحدة فقط، فسوف تخرج عن يدك. إن التقاليد القديمة في المجتمع السعودي لا تسمح للسيدات بأن يقدن السيارة بأنفسهن، مع أن الإسلام قد أذن للمرأة بالمشاركة في الحياة الاجتماعية شرط الالتزام بأحكام الحجاب. الأخوات الفضليات، كثيرًا ما سوف تشعرن في حياتكم العملية أن التقاليد الاجتماعية في حالة تصادمٍ مع القيم الإسلامية، وفي هذه الحالة يجب عليكن أن تخترن الإسلام وتتركن التقاليد دون تفكيرٍ مهما كانت العراقيل التي تواجهنها في هذا العمل. إن شهادات التخرج التي حصلتن عليها اليوم تعبر عن الثقة التي مُنحت لكن في قدرتكم على تمييز الصدق من الكذب في ضوء الكتاب والسنة. لقد أصبح لديكن الوعي بفضل الله فيما يأمركن به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلتنظرن في الكتاب والسنة لمعرفة ما إذا كان الكتاب والسنة يقران هذه الخطوات أم

لا؟ إن سألكن أحد عن الحقيقة فلا تخطئن مثل غيركم في الاعتقاد بأن التقاليد السائدة هي الدين، ولكن عليكن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تقبلن ما قبله كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وترفضن ما لا مكان له في الشريعة وإن أيده كبار العلماء, لأن حجتنا الأصلية قائمة على قول الله وقول رسوله ﷺ.

الأخت الكريمة: يجب أن تعلمي أنك إذا تركت كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واخترت شيئًا آخر، أو لو كان لديك ميل بالاكتفاء بالأسماء الكبيرة، واعتبار ما توصلوا إليه وما فهموه هو ذروة سنام الأمر، فهذا يعني أنك لم تستفيدي من العلم الذي تعلمتيه هنا. نعم استفيدي من هذه الأسماء الكبيرة ومن مؤلفات المتكلمين من المسلمين القدامى والمحدثين، لكن ما يجب أن تعضي عليه بالنواجذ عند الحكم في مسألة من المسائل هو قول الله وقول رسوله ﷺ. وسوف تدهشين عند النظر إلى أقوال المفكرين البارزين لتجدي فيها غثاء تافهًا نتيجة تأثير التقليد عليهم. إن اختباركن الحقيقي يبدأ من هنا, خلافًا للقارئ العادي الجاهل بأحكام الدين والشريعة الذي يقبل كل شيء على أنه مطلب من مطالب الدين اعتمادًا على الأسماء اللامعة للعلماء. وإذا نظرت إلى آراء بعض هؤلاء العلماء من منظور الكتاب والسنة، فستجدين أنها تختلف تمامًا عما جاء في الكتاب والسنة. إنك الآن بعد أن تعلمت علوم الكتاب والسنة وأصبحت على وشك خوض غمار الحياة العملية، قد أصبحت أهلاً لأن تشاركي زوجك بآرائك المفيدة، أما التدين القائم على التقليد فلم يعد مقبولاً منك البتة. وكي لا نذهب بعيدًا، أسوق لك مثالاً من مصنف الإمام الغزالي الشهير "إحياء علوم الدين"، والذي ذكر فيه أن عمر ﷺ قال: "شاوروا النساء وخالفهن". وإذا كنت ترين أنك أهلا لإبداء النصح والمشورة لزوجك على ضوء الكتاب والسنة، إلا أن الدين التقليدي لا يقبل هذا، فاسمعي ما نقله الإمام الغزالي عن الحسن البصري: "إذا ظل الرجل مطيعًا لزوجته يفعل ما يحلو لها فسوف يُلقى به على وجهه في نار جهنم". هذا الكلام ومثله الذي يستبعد المرأة من إبداء النصح والمشورة لا يتطابق مع ما جاء به الإسلام، فنحن نرى نبي الأمة يقبل ما أشارت به زوجته السيدة أم سلمة في وقت عصيبٍ كصلح الحديبية, أتذكرن ذلك؟ عند ما كان هناك استياء عام لدى الصحابة من صلح الحديبية الذي وقعه النبي ﷺ مع الكفار

حتى أنهم كانوا مترددين في الامتثال لأمر رسولهم ﷺ، حينئذ أشارت أم سلمة على رسول الله ﷺ بأن يخرج ولا يكلم أحدًا وأن يحلق رأسه وينحر هديه، فإذا رآه الناس اقتدوا به واتبعوه، وكان هذا هو ما حدث. كيف يمكن أن يقبل النبي ﷺ مشورة امرأة، ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة، وترفض الكتب التقليدية قبول رأيها أو مشورتها لمجرد أنها امرأة.

الحمد لله الذي جعلكن من أهل العلم بالكتاب والسنة، ولتعلمن أنكن إذا نجحتن في شق طريق لأنفسكن وسط هذا المجتمع، وقمتن بفصل الدين عن التقليد، فسوف يكون المستقبل أمامكن ربيعًا مزهرًا.